

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

حديث الصباح والمساء

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

« حرف الألف »

« أحمد محمد إبراهيم »

فى السماء زرقة صافية ، وعلى الأرض تغفو ظلال أشجار البلخ ، وأديم الميدان العتيق يشرق بنور الشمس ، ويتلقى من الحارات هديرا لا ينقطع . ميدان بيت القاضى يضم قسم الشرطة الحديث وبيت العدل والمال القديم ، وتطؤه أقدام حافية وشباشب مزخرفة ومراكيب ملونة وحوافر الخيل والحمير والبغال . ويطلع أحمد على ذلك الملعب الواسع فسرعان ما ينسى بيته الأصلى ، بيت والديه بحارة الوطاويط . كان ابن أربعة أعوام عندما حمل إلى بيت جده لأمه بميدان بيت القاضى ليؤنس وحدة خاله قاسم الذى كان يكبره بعام ونصف عام . خلا البيت بعد زواج البنات والصبيان فلم يبق فيه إلا عمرو أفندى الأب وراضية الأم ، وآخر العنقود قاسم . لم يعرف قاسم أخواته صدرية ومطرية وسميرة وحبيبة ، وأخويه عامر وحامد إلا كضيف عابر مع أمه أو أبيه ، يزورهم ، كما يزور فروع أسرته فى ميدان خيرت أو سوق الزلط أو العباسية الشرقية . وفى بيت شقيقته مطرية بحارة الوطاويط أحب ابنها أحمد حبا فاق حبه للجميع . وكان لأحمد أخ أكبر يدعى شاذلى وأخت فى اللفة تدعى أمانة ولكنه خص أحمد بكل قلبه . وكانت مطرية تحب قاسم كأبنائها فأهدته إليه ليعيش فى كنف جديه ويؤنس وحدته فى بيت كبير خال من الأنيس . ولم يرتح محمد أفندى إبراهيم — أبو أحمد — لذلك كما لم

ترتح له أمه — حماة مطرية — ولكنهما لم يعترضا مصممين على أن يستردّاه حال بلوغه السن المناسبة لدخول الكتاب . وجهل قاسم تلك النية المبيتة فنعم بالصحبة فى صفاء لا يشوبه كدر . وكان أحمد كأنه آية فى الجمال ، مورد البشرة ملون العينين ناعم الشعر خفيف الروح ، يتبع خاله كظله فى أرجاء الميدان ، يشاهدان ألعاب الحاوى ، وعربة الرش ، وطابور جنود الشرطة . ويستقبلان معا عم كريم بياع الدندورمة ، ويتابعان بشىء من الخوف مواكب الجنازات . وكانت الرائحة والغادية من الجارات تنظر إلى أحمد وتتساءل :

— من هذا الولد الجميل ؟

فيجيب قاسم باعتزاز .

— أحمد ابن أبلة مطرية .

فتمضى المرأة وهى تقول :

— الجميل ابن الجميلة .

وكان محمد أفندى إبراهيم يقول لراضية أم قاسم :

— لا تملئى رأس أحمد بحكايات العفاريت يا نينة .

فترمقه باحتقار وتقول :

— يا لك من مدرس جاهل !

فيضحك الرجل كاشفا عن ثنيتيه المتراكبتين ثم يواصل تدخين غليونه . ذلك أن ختام اليوم يتم عادة بين يدى راضية فتنداح النشوة فى قلبى الطفلين على سماع الحكايات قبيل النوم ، وتنهمر على خيالهما كرامات الأولياء وعبث العفاريت ، وينغمس الواقع فى دنيا الأحلام والخوارق والآيات الربانية . وتمضى بهما فى أوقات الفراغ من بيت إلى

بيت ، ومن ضريح ولى إلى جامع حبيب من آل البيت . وظلت الدنيا لهوا ولعبا حتى حمل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة وليحرم من رفقه أحمد ثلثى النهار . والكتاب يقع فى منحنى من منحنيات عمارة الكبابجى على بعد خطوات من البيت ، ولكنه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجنا تتلقى فيه المبادئ الإلٰهية تحت تهديد المقرعة .. ولم تجد التوسلات ولا الدموع . ويغادره عصرا فيلقى أحمد وأم كامل فى انتظاره عند الباب . لم تعد الدنيا كما كانت . تسللت إليها هموم لا مفر منها . وبغريزة يقظة شعر بخطر آخر يتهدده من ناحية محمد إبراهيم والد أحمد ، فهو لا يرتاح لإقامة أحمد بعيدا عنه . وتتجلى فى عينيه الجاحظتين نظرة باردة نحوه ، ويقول لأمه :

— أنا لا أحب هذا الرجل .

فيكفهر وجهها الأسمر الطويل وتقول له :

— يا لك من جاحد ! ألم يهد إليك ابنه ؟

— ولكنه يريده .

فتضحك قائلة :

— أترغب فى أن ينزل لك عن ملكيته ؟!

* * *

ولكنه ذات يوم لم يجد أحمد فى انتظاره لدى خروجه من الكتاب ، ووجد أمه جادة أكثر من عادتها ، وقالت له :

— حبيبك مريض .

ورآه مستغرقا فى نوم ثقيل فى فراشه ، وراحت أمه تعمل له مكمدات خل وهى تتمتم :



— يا ولدى .. يخرج منك صهد كالنار ..

ولا تكف عن تلاوة الآيات . ولما رجع عمرو أفندى إلى البيت مساء رأى أن يرسل أم كامل لإخطار مطرية وزوجها . ولما لم تنخفض الحرارة بالبخور والتعاويذ ، جاء عمرو أفندى بطبيب من الجيران ، ولكنه أعلن أنه طبيب عيون ونصح باستدعاء الدكتور عبد اللطيف المقيم فى باب الشعرية . واعترض عمرو أفندى قائلا :

— ولكنه متزوج من العالمة بمبه كشر !

فقال الطبيب ضاحكا :

— بمبه كشر لم تنسه الطب يا عمرو أفندى ..

وجاء الطبيب زوج العالمة المشهورة ، وشعر قاسم بأنه شحن الجو بمزيد من التوتر . وسمع أمه وهى تقول :

— أنا لا أصدق الأطباء ولا أعترف إلا بطبيب واحد هو خالق السماوات والأرض ..

وتمر الأيام ويتساءل قاسم أين أحمد ، أين غابت نضارته وجماله ؟!

عاد عصر يوم من الكتاب .

دهمه البيت بمنظر جديد . رأى أهله جالسين فى صمت غريب . فى حجرة أحمد لمح أمه وجدة صديقه لأبيه ، وفى حجرة المعيشة رأى إخوته وأخواته .. عامر وحامد وصدرية وسميرة وحبيبة . أما مطرية فكانت تجهش فى البكاء وإلى جانبها يجلس محمد إبراهيم واجما يدخن غليونة . وتسرب الخوف إلى قلبه مع الهواء المفعم بالحزن ، وأدرك بطريقة ما أن ذلك العدو الذى سمع عنه فى مناسبات ماضية ، الذى رآه يخيم فوق الجنازات المتجهة نحو الحسين ، قد اقتحم بيته وخطف أحب خلق الله إلى

قلبه . وصرخ باكيا حتى حملته أم كامل إلى السطح . ومن وراء خصاص نافذة الحجرة الصيفية رأى جدة أحمد تحمل بين ذراعيها لفافة مزركشة وتستقل حنطورا مع ابنها وعمرو أفندى . وذهب الحنطور يتبعه حنطور آخر يحمل عامر وحامد وعمه سرور أفندى . جنازة من نوع جديد فهل انتهى أحمد ؟! أبى أن يصدق ذلك أو يسلم به : آمن من كل قلبه بأنه سيراه مقبلا ذات يوم مكللا بعذوبته الوردية ولكنه لم يكف عن البكاء . وفى الليل انفض الجمع ، نهره أبوه قائلا :

— كفاية !

فسأل أباه برجاء :

— أين ذهبتم به ؟

فقال عمرو .

— لم تعد طفلا ، أنت فى الكتاب وتحفظ سورا من كتاب الله ، أحمد مات ، وكل إنسان سيموت كما يشاء الله ، وهذه هى إرادة الله ..

فتساءل محتجا :

— ولكن لماذا ؟

— إرادة الله ، ألا تفهم ؟

— لا أفهم يا بابا ..

— لا .. هذه قلة أدب أمام الله .. سيذهب أحمد إلى الجنة بغير حساب وهذا حظ عظيم ..

فاحذر قلة الأدب ..

فصاح :

— أنا حزين جدا يا بابا ..

— اقرأ الفاتحة يبرد قلبك ..

لكن قلبه لم يبرد . وكان كلما تذكره بكى . وقيل إن حزنه عليه فاق حزن أمه نفسها .. ولم يسل عن حزنه حتى تحطم واقعه وخلق خلقا جديدا لم يجر لأحد على بال .

« أحمد عطا المراكيبى »

عملاق فى الرجال ، بالطول والعرض ، وقسمات الوجه الخليقة بتمثال ، يجرى دمه الدافق فى أديم أسمر ، صورة خيالية لبطل حكاية شعبية بشاربه الكث وراحته المنبسطة ، وظاهر يده الأشعر ، يملأ مقعد الحنطور وهو يتهادى به فى ميدان بيت القاضى قبل أن يقف أمام البيت القديم إذا جاء لزيارته فى هالة إقطاعى كبير . ويتلقى ابن أخته عمرو أفندى — وهو يماثله فى السن — بين أحضان عامرة بالود ، ويصافح راضية بحرارة ، ويضع الهدايا فوق الكنصول وهو يتساءل :

— أين قاسم ؟

ويند عنه صوت هادئ خفيض يعد غريبا بالنسبة للهيكل العملاق الصادر عنه ، وتشع من عينيه البنيتين نظرة وانية متوددة تتحلى بالطيبة والسلام ، كأنه مسجد ضخم يجمع بين الجلال والأمان .

— حدثنا كيف حال أولادنا ؟

يقصد البنات والأبناء . وكان يزور الجميع على فترات وخاصة البنات ليزكى مكانتهن أمام أزواجهن . وكان يغمر قاسم بالحلوى ، وقد حزن لوفاة أحمد الذى أحبه كثيرا لجماله .

ويبقى عادة للغداء مشترطا تقديم وجبة بلدية من طواجن راضية التى اشتهرت بإتقانها مع إضافات جاهزة من طعمية الحلوجى وكباب العجاتى ، ويواصل البقاء حتى يقضى السهرة مع عمرو ، وشقيقه سرور فى الكلوب المصرى . وكان الفرع الفقير من الأسرة يسعد بزيارات الفروع الغنية مثل آل المراكيبى وآل داود ويزهو بما تحدثه من أثر باق فى الحى رغم أن راضية كانت تقول لعمرو .

ـ لا أصل لأحد منهم ، كلهم نشأوا فى التراب !

ثم تلتفت إلى قاسم قائلة بتحد :

ـ يوجد رجل واحد ظفره بكل هؤلاء هو جدك الشيخ معاوية !

فيبتسم عمرو ويصمت إيثارا للسلامة . على أن قاسم لا يفيق أبدا من سحر سراى آل المراكيبى بميدان خيرت . فى حجم ميدان بيت القاضى وفى ارتفاع القلعة ، ولها حديقة مثل حديقة الحيوان ، لا حصر لحجراتها ، ولا مثيل لأثاثها ، وأى تحف مختلفة الأشكال والألوان وتلك تماثيل من الجص والبرنز فى الأركان ، وفوزية هانم حرم أحمد بك ونازلى هانم حرم محمود بك ، ذاتا البشرة العاجية والأعين الملونة . عالم حقيقى يفوق بسحره عالم الحكايات والأحلام . وجدته لأبيه نعمة عطا المراكيبى هى أخت أحمد بك ومحمود بك . ولكنها امرأة فقيرة رغم ذلك لا تملك من دنيا الله سوى ابنيها عمرو وسرور وابنتها رشوانة ، غير أن الأخوين الثريين كانا يحبان أختهما ويحبان ذريتها وخاصة عمرو أفندى الذى تميز بحكمة فطرية . وكان أحمد بك يوثق عزوته بآل داود ، أقارب أولاد أخته نعمة وأصهاره، على ما بين الفرعين الثريين من غيرة متبادلة ويدعوهم لسراى ميدان خيرت ، وكان أحمد أحب إلى عبد العظيم باشا

داود من أخيه محمود لدماثة خلقه وبساطته وتواضعه . ولكن جرت العادة عند ذكر آل المراكيبى فى بيت عمرو أن يقول عبد العظيم باشا بسخرية :

ـ مال كثير وجهل أكثر وما المنبع ؟.. بياع مراكيب حقير بالصلحية !

أو يقول محمود عطا عن آل داود :

ـ ألقاب رنانة .. والأصل أجير على باب الله !

فيقول عمرو بتقواه المعروفة : كلنا أولاد آدم وحواء .

وقد بدأ عمرو وسرور ومحمود وأحمد حياتهم التعليمية فى سنوات متقاربة وقنعوا بالشهادة الابتدائية ، فالتحق عمرو وسرور بالحكومة لفقرهما ، واقتحم محمود تجربة الحياة تحت جناح أبيه ، وجنح أحمد للدعة وحياة الأعيان ، فأسقطه أبوه من حسابه . كان يمضى وقتا فى العزبة ببنى سويف على هامش العمل الزراعى ، ثم يرجع وحده ، أو هو وفوزية هانم إلى السراى بالقاهرة بمقامه فى الدور الثالث ، وينفق وقته بين زيارات الأهل واستقبال الأصحاب . كان بهوه الفخم معدا لاستقبال الأصدقاء والأقارب ، يحتسون الشاى والقهوة والقرفة ويلعبون النرد والشطرنج ويدعون للغداء أو العشاء ، ويسهرون فى ليالى رمضان والمواسم حتى مطلع الفجر . كان الفونوغراف رفيق خلوته ، والحنطور متعته ، وحدائق شبرا والقبة مرتاده ، والسيدة مصلاه أيام الجمع ، وقد يحضر بعض ليالى الذكر الصوفية مع عمرو ابن أخته المنتسب للطريقة الدمرداشية . ولما مات الأب عطا المراكيبى تلقى مجرى حياته الهادئ الدائم الخضرة دفقة هواء عنيفة كادت تعصف به . وجد نفسه بغتة أمام

مسئولية ضخمة لم يدرب على التعامل معها . كان عليه أن يدير أرضه الموروثة ـــ ثلاثمائة فدان ـــ بالإضافة إلى أرض زوجته البالغة المائة . وقال له محمود بك :

ـــ ستتعلم كل شيء ، ولديك من يعاونك ، ولكن .. وكور الرجل يده الغليظة ثم واصل :

ـــ عليك أن تتخلى عن طيبتك ، فالتعامل مع الفلاحين والمستأجرين غير التعامل مع الأصحاب والأقارب !

وفكر طويلا وهو يتخبط فى الشرك ، ثم قال :

ـــ أنت أخى الأكبر ، وما لقيت منك إلا البر والوفاء ، وأنا لم أخلق لذلك ..

بذلك حل محمود محل أبيه . ولم ترتح فوزية هانم للقرار وقالت له بأدبها الجم :

ـــ شد ما تعجلت قرارك دون مشاورة .

فسألها بحيرة :

ـــ هل يداخلك شك من ناحية أخى ؟

فقالت بأمانة :

ـــ نعم الأخ هو ولكن لم تضع نفسك تحت وصايته ؟

فقال :

ـــ إنه شقيقى وحبيبى ، وأنت شقيقة زوجته ، وأسرتنا مثال فى الوئام والحب ، وقد فعلت ما أراه مناسبا ..

وواصل حياته الناعمة ، وكان يتسلم نصيبه دون مراجعة ، وكان الخير عميما والبال رائقا . وانقضت عليه ثورة ١٩١٩ فهزته من الأعماق

وأشعله سحر زعيمها ، وتبرع لها بعشرة آلاف جنيه مستجيبا لاقتراح أخيه . تناسيا وصية قديمة لأبيهما بالبعد عن السياسة وتجنب ما يثير غضب السلطات الشرعية وغير الشرعية : كان المد أقوى من أن يفلت منه إنسان . ولكن عندما أطل الشقاق بقرنه وحصل الخلاف بين سعد وعدلى ، تشاور الرجلان فيما ينبغى فعله . أو راح محمود يفكر وأحمد يتابعه . قال محمود :

ـــ انقضت فترة العواطف وجاءت فترة العقل .

فقال أحمد :

ـــ الأرض كلها مع سعد .

ـــ نكون حيث تكون مصلحتنا .

فاشتد انتباه أحمد حتى استطرد أخوه :

ـــ لا يغرنك الهتاف ، الإنجليز هم القوة الحقيقية ، عدلى قريب منهم ولكنه لا يوفر الأمان الدائم ، هناك سلطة شرعية هى الوسيلة الباقية بين الإنجليز وهى العرش ، فليكن ولاؤنا للملك !

فقال أحمد مستسلما :

ـــ الصواب معك دائما يا أخى !

وعرف ذلك الموقف فى بيت القاضى حيث يتجاور بيتا عمرو وسرور . وهمس عمرو بأسلوبه الهادئ :

ـــ سلوك غير لائق .

فقال سرور بسخرية :

ـــ أقاربنا الأغنياء . وهبهم الله مالا لا يعد وخسة لا تدانى ..

وكان عمرو يتحرج من العنف لأكثر من سبب ، لهدوء طبعه من

ناحية ، ولزواج حامد ابنه من شكيرة بنت محمود بك ، وعامر من عفت بنت عبد العظيم باشا ، ولكنه لم يخف رأيه عن خاله أحمد بك وهو يتعشى معه فى السراى فقال له أحمد باسما :

— علم الله أن قلبى معكم ولكنه رأى محمود !

فقال عمرو آسفا :

— الميدان تحت بيتنا يموج بالمظاهرات كل يوم ، والهتاف بسقوط الخونة يتصاعد إلى السماء ..

فقال أحمد :

— أصحاب المصالح لا يحبون الثورات يا بن أختى .. والواقع أن أحمد هو الذى تعرض للنقد لاختلاطه بالناس ليل نهار ، أما محمود فكان أكثر وقته منغمسا فى عمله فى العزبة . ونتيجة للولاء المعلن فى تلك الفترة الحرجة فاز الأخوان برتبة البكوية فى عيد الجلوس ، وسر بها الرجلان سرورا فاق كل تصور . وأولم أحمد وليمة دعا إليها جميع الأقارب نساء ورجالا ، من آل عمرو وسرور وداود ، وبدت السراى فى حلة لا تبدو بها إلا فى الأفراح . وغاص أحمد فى حياته الخاصة حتى قمة رأسه ، ولم يأذن بهموم الوطن بالتسلل إلى خلوته وتكدير صفوها . ولكن بتقدم الزمن ونمو الأبناء جاءته المتاعب من حيث لم يحتسب . لم يوافق ابنه الأكبر على الوضع الذى اختاره لنفسه تحت وصاية أخيه . وخاض نزاعا طويلا عنيدا مع أمه أولا ثم مع أبيه ثانية . ولم يعف أباه من ملاحقته حتى وعد باسترداد حقه الذى نزل عنه بمحض اختياره . ومن تلك الشرارة اندلعت النيران فى أركان الأسرة المتحدة . انتهز أحمد فرصة زيارة محمود للقاهرة لبعض شأنه وفاتحه فى الموضوع على استحياء ، وختم حديثه كالمعتذر

قائلا :

— الأولاد كبروا ولهم رأيهم !

أدار محمود ما سمع فى رأسه طويلا وهو يتلقى من الغضب أمواجا هادرة . كان قد تطبع بسلطة غير محدودة ، ومارس فى السراى هيبة تجاوزت أسرته إلى أسرة أخيه الوديع الطيب . كانت فوزية هانم تهابه وتصدع بأوامره على حين تناقش زوجها مناقشة الند للند . وكان ابنا أحمد يلتزمان أمامه حدود الأدب والطاعة على حين يتعاملان مع أبيهما بالحب والمرح والحرية . وأفلت الزمام من يدى محمود فقال لأخيه :

— يا لك من رجل ضعيف ! كيف سمحت لابنك بهذا العبث ؟!

فاستاء أحمد ولم يشأ أن يفرط فى احترام أبنائه له فقال :

— لا ضرورة للكلمات القارصة يا أخى ..

فسأله بوحشية :

— هل تشكون فى ذمتى ؟

فبادر يقول :

— معاذ الله ، ما هو إلا حقى فى تولى شئونى بنفسى ..

— حقك فى تدمير نفسك بنفسك بوحى من حماقة أولادك ؟

فقال عابسا :

— الله المستعان ..

وتلا ذلك مناقشة مع عدنان الابن الأكبر لأحمد اعتبرها محمود بك قحة تستحق الزجر . وكان أن خاطب الشاب عمه بشىء من العنف اعتده الرجل جريمة . وسرت النار من فرد إلى فرد . تخاصم الشقيقان ، وانحازت كل زوجة إلى زوجها ممزقة الولاء لشقيقتها ، وتبادل أبناء العم

أسوأ ألوان السباب . وتهرأت عروة الأسرة ، وانطوى كل فرع على نفسه فى دوره بالسراى كأنه لا يعرف الآخر ، وخابت مساعى رشوانة وعمرو وسرور فى إصلاح البين ، بل إن حامد بن عمرو — وكان يقيم مع زوجته شكيرة فى دور محمود وأسرته — وجد مشقة وحرجا ليحافظ على صلته الطيبة بآل أحمد خال أبيه . وانتقل أحمد بك إلى العزبة فى بنى سويف ليتسلم أرضه على كبر ، فيزرع ما يزرعه منها ويؤجر ما يؤجره ، ولقى فى ذلك من المتاعب ما لم يتصوره وتعرض لخسائر لم تجر له فى حسبان . وقبيل الحرب العظمى الثانية بقليل أصيب الرجل بالفالج وحمل إلى فراشه بالقاهرة فى انتظار النهاية . كان أول من هوى من الجيل الثانى العتيد ، وكانت الأمراض ترشح بقية الجيل للحاق به بطريقة أو بأخرى ، وكان عمرو مازال يقاوم الأجل ، وفى الحال زار محمود بك وقال له :

— آن لك أن تنسى الخصام وأسبابه وأن تعود شقيقك ..

وصمت الرجل متأملا ثم قال :

— ثمة أمور لا تنسى ، ولكنى سأفعل ما يليق بى .. وما تدرى أسرة أحمد بك إلا ومحمود بك يستأذن فى الدخول . وجموا ووقفوا له متأدبين وقد دمعت أعينهم . وكان بصحبته زوجته وأبناؤه فتم التصافح وقال الرجل :

— يذهب الشقاق وينسى ويظل القلب ينبض بدقات القربى ..

ومضى إلى أخيه المطروح فوق فراشه بلا حركة ولا نطق . انحنت فوزية هانم فوق أذنه وهمست :

— أخوك محمود بك جاء ليطمئن عليك .

فانحنى بدوره فوقه ولثم جبينه ثم استقام وهو يقول :

— العفو عند الرحمن ، شد حيلك .

— ورفع الرجل جفنيه الثقيلين ، وتبدى عجزه عن النطق ، ولكن لم يشك أحد فى الأثر الطيب الذى اختلجت به وجنتاه المحتقنتان . وأسلم الروح عند منتصف تلك الليلة الحزينة .

« أدهم حازم سرور »

مهندس معمارى من خريجى عام ١٩٧٨ . استقبل حياته العملية وهو ابن خمسة وعشرين فى القاهرة الحافلة بالمشكلات ، ولكنه لم يعثر فى حياته بمشكلة واحدة . وتلاطمت حوله أمواج البشر والمركبات وانفجر هديرها مثل عزيف البراكين ، ولكنه نعم فى فيلا والديه بالدقى بالهدوء والسكينة وشذا الورد والأزهار ، وتحير جيله فى مسالك الحياة بحثا عن الهوية والبيت والزوجة وتحقيق الذات ولكنه وجد مكتب والده الهندسى فى انتظاره ليشغل فيه مركز السيادة المرموق . وسيم مثل أبيه ، ومثله أيضا ضعيف العين اليسرى لدرجة العمى ، ولا يعرف من شئون الدنيا إلا فنه ولا ينتمى إلا لأحلام التفوق والثراء ، ويكاد لرقة دينه أن يكون بلا دين عن غير إلحاد . وقالت سميحة هانم أمه مخاطبة أباه :

— خسرنا أخاه الأكبر ، فدعنى أهيئ له حياة محترمة !

فقال برقة مشفقا كالعادة من إغضابها :

— هذا جيل يختار لنفسه فلا تتحدى كبرياءه .. ولكنها غضبت رغم رقته ، اشتعلت كالعادة صائحة :

— فى أسرتكم عرق قذر أخشى أن يسوقه إلى طريق أخيه ..



فأشعل سيجارة وقال لها :

— افعلى ما بدا لك ..

ولكن أدهم كان مبادرا بأكثر مما تخيلت ، فأخبرهما وهم جلوس فى حديقة ميناهاوس صباح يوم العطلة بأنه اختار شريكة حياته .. وفزعت أمه وحملقت فى وجهه متسائلة ، وحدس الشاب مخاوفها فقال باسما :

— كريمة ، فى السنة النهائية بكلية الحقوق ، أبوها محمد فوزى مستشار بقضايا الحكومة ..

هدأت أعصابها فيما بدا وتناولت ملعقة من الكاساتا وراحت تلوكها فى فمها المنقوشة حوافيه بتجعيدات السنين ، ثم تمتمت :

— لا بد من التحرى ..

فقطب أدهم ، وقال الأب ملاطفا :

— مجرد إجراءات ولكنى متفائل ..

وتبودلت زيارات ، وحظى الاختيار بالرضا ، وكان لا بد أن تعلق بنقد ما فقالت لحازم زوجها :

— أمها جاهلة فيما يبدو .

فعجب الرجل لقولها إذ أنها — سميحة — لم تحصل على البكالوريا ولكنه قال :

— لا أهمية لذلك ..

وتم الاتفاق على كل شىء ، واشترى حازم لابنه شقة فى المعادى بتسعين ألفا من الجنيهات ، استقر ابنه وعروسه فيها فى نهاية العام .

ولم يكن أدهم يعرف من شجرة أهله إلا فرع أمه ، جده محمد سلامة منشئ المكتب الهندسى وأخواله وخالاته . أما أهل أبيه فكان يعرف — ربما

معرفة عابرة — أن جده سرور أفندى عزيز كان موظفا بالسكك الحديدية ، وأن عمرو أفندى عم والده كان موظفا بالمعارف ، وكان له عمات ولكل أبناء وبنات ولكنه لم ير أحدا منهم . يعرف أيضا أن أسرته من حى الحسين وهو حى يقترن فى ذهنه بالفقر والتأخر فلا حاجة به إلى تذكره ، ولم يمر به إلا عابرا وهو فى سيارة . وكثيرا ما يلتقى بنفر منهم فى الميادين أو بعض الأماكن العامة فلا يعرفهم ولا يعرفونه . وتابع أبوه نشاطه بارتياح ، واطمأن إلى أنه إذا تقاعد يوما — وهو قريب — فسيترك المكتب لرجل قادر . وقد قال له يوما بمناسبة ما ذاع وشاع عن الفساد :

— كل الفرص متاحة ، لك العلم والذكاء والهمة فتجنب الانحراف ، لا تسخر من النصيحة . إن كنت ممن يسخرون من القيم ، فعلى الأقل احرص على السمعة واخش السجن !

« أمانة محمد إبراهيم »

مشرقة اللون ، دقيقة القسمات ، ناعمة الشعر ، صورة جديدة لأمها مطرية لولا بروز ما فى ثنيتيها وهى آخر من أنجبت مطرية ، وجاء ميلادها قبيل وفاة أحمد بأشهر . وأحبها خالها قاسم ولكنه لم يجرؤ على المطالبة بها كما فعل مع شقيقها الراحل . فجعل يحبها من بعيد حتى انتزعته مأساته الشخصية من هموم الدنيا جميعا . وماتت جدتها لأبيها وهى فى السابعة فحزنت عليها حزنا أكبر مما يجوز فى سنها . ودخلت المدرسة الابتدائية دون اعتراض بحكم زمنها ، وبحكم زمنها أيضا انتقلت منها إلى المرحلة الثانوية . ومع أن مطرية لم يكن يشغل بالها إلا الزواج إلا أنها قالت

لزوجها :

— كبنات أختى سميرة ، الدنيا كلها تود أن تتعلم اليوم ..

وكان محمد إبراهيم يسلم بذلك دون مناقشة . وكان قد رقى لدرجة مدرس أول مع بقائه فى مدرسة أم الغلام بشفاعة عبد العظيم باشا داود . والحق أن أمانة أبدت استعدادا طيبا للتعليم وتجلى تفوقها فى الرياضيات ، وتراءت لها الجامعة كحلم سهل التحقيق . وحصلت على البكالوريا ولكن فى العطلة الصيفية التالية مرض أبوها مرضا لم يمهله فسرعان ما توفى وهو فى الخمسين . وورثت الأسرة البيت والمعاش وإيجار دكان فى أسفل البيت ، وكانت الحرب العظمى الثانية قد انتهت ورحل من الجيل الثانى عمرو وسرور ومحمود عطا ، فشعرت مطرية بأنها تواجه الحياة وحيدة . فى ذلك الوقت تقدم عبد الرحمن أفندى أمين الموظف بدار الكتب لطلب يد أمانة . رجل يكبرها بخمسة عشر عاما ذو سمعة طيبة وكان رأى أمانة أن الرجل مقبول ولكنها تود أن تكمل تعليمها . وقالت لها مطرية بعطف :

— ظروفنا تقتضى تفضيل الزواج .

وشاورت مطرية أمها فقالت راضية :

— الرجل المناسب أهم من الجامعة ألف مرة ..

ونظرت إلى أمانة بإعجاب وقالت :

— كيف تهتم بالتعليم بنت فى جمالك ؟

وقال لها خالها الشيخ قاسم :

— رأيتك فى المنام وأنت ترقصين فى قسم الجمالية !

وسألت مطرية أمها عن تأويل الحلم فقالت دون تردد :

— القسم هو الأمن والأمان ، هو بيت الزوجية ..

وجهزت مطرية أمانة بمهرها وثمن حليها وحلى جدتها لأبيها وما تبقى من مدخر قليل للمرحوم محمد إبراهيم وزفت إلى زوجها بشارع الأزهر . ووضح أن الحب أظل بجناحه الأسرة الجديدة ، ولكن التوافق بين الزوجين بدا من أول الأمر أنه يقتضى عناء مريرا . المسألة أن عبد الرحمن أمين آمن بسيادة الرجل ، وأنها كانت شديدة الحساسية تتهول فى وجدانها قرصة نملة فتخالها قرصة ثعبان . سرعان ما تبكى وتنفرد بنفسها أو تذهب من الأزهر إلى حارة الوطاويط . وتمضى بها مطرية لتفض الاشتباك فتتورط فى الخصام . وقالت لها شقيقتها الكبرى صدرية :

— ليس زوج بنتك بأسوأ من زوجى .. ومع ذلك لم يدر أحد بما ينشب بيننا ، لا تتدخلى بينهما ولا تميلى مع أمانة مع كل خلاف ..

وعلمت راضية بذاك النقار المتجدد فاستعانت بالتعاويذ والرقى وزيارة الأضرحة ، وبدا أن الحال تنذر دائما بمزيد من الشقاق حتى لاح شبح الطلاق بوجهه القبيح كالوطواط الأعمى . وضاعف من عمق المأساة أن أمانة بمجرد أن أنجبت بكرها محمد استحوذت عليها الأمومة واختفت الزوجة الجميلة أو كادت . وأنجبت بعده عمرو وسرور وهدية ، وابتعد شبح الطلاق . واستمر النقار ، وانطبع الوجه الجميل بطابع أسى دائم . وشرع الأبناء فى التعليم مع أول جيل لثورة يوليو ، وعبروا جو بيتهم الكئيب فحلقوا فى سماوات من الآمال والمجد حتى غرقوا فى بحر الحيرة الذى ابتلع ضحايا ٥ يونيه ١٩٦٧ ، ومضوا يستقبلون حياة عملية بعد رحيل الزعيم الأول ، وفى موجة النصر والانفتاح فازوا بعقود عمل فى البلاد العربية حتى هدية لم تتخلف عن ذلك وكانت مطرية قد رحلت بدورها بعد معاناة طويلة لخيبة الأمل ، بعد موت البكرى ورحيل الزوج

قبل الأوان ، وانحراف شاذلى ، وسوء حظ أمانة ، وسلم عبد الرحمن أمين بالواقع بعد طعونه فى السن ، ونعمت أمانة بنجاح أبنائها وإن حل بها الكبر والسقام قبل الأوان . وبحكم الزمن شهدت رحيل الأعزة من الأخوال والخالات وبقية الأقارب ، وقرأت كتاب الأحزان وهو يقلب صفحاته صفحة فى إثر صفحة .. واستمعت إلى نبوءات الشيخ قاسم المرسلة من وراء السحب لتجرى أحكامها فوق المصائر ..

« أمير سرور عزيز »

ولد ونشأ فى بيت القاضى ، وكان بيت سرور أفندى يلاصق بيت شقيقة عمرو أفندى ، كما كان أمير يقارب ابن عمه قاسم فى سنه ، وقد شارك ابنَ عمه فى لعبه وجولاته ، وانفصل عنه عقب مأساته على رغمه ، وكان بخلاف إخوته قويا مع ميل إلى البدانة وحب للدعابة ، وكانَ أشبه الجميع بعمه عمرو فى رجولته وتقواه . وقد عرف ثورة ١٩١٩ كأسطورة من المظاهرات والمعارك والقصص فترعرع سعديا وطنيا مؤمنا . وحاول أن يقلد أخاه لبيب فى تفوقه واجتهاده فشق طريقه بنجاح ولكن دون أخيه بمراحل . وبسبب من تقواه وروحه المحافظة على الآداب والتقاليد ساءت علاقته بأخته جميلة التى كانت تكبره بأربع سنوات ، لاعتراضه على ما اعتبره تحررا فى سلوكها لا يليق بسمعة الأسرة ولا بكرامة الدين . ولم ير أحد من أسرته رأيه فزادوا غضبه حتى قال له أبوه :

— أنت متعصب أكثر من اللازم فدع الأمر لى ..



وبدخوله المرحلة الثانوية بدأ يشارك فى المعارك الحزبية التى نشبت بعد رحيل سعد زغلول . اشترك فى المظاهرات التى قامت احتجاجا على دكتاتورية محمد محمود ، وأصابته هراوة لبث بسببها فى المستشفى أسبوعين . وكان له ثلاثة أقارب من ضباط الشرطة فى مراكز حساسة بالداخلية ، حامد عمرو ابن عمه ، وحسن محمود عطا ابن خال أبيه ، وحليم عبد العظيم داود ابن عم أبيه ، وتشاوروا فى الأمر وكلفوا أقربهم إليه بتحذيره وترشيده . وكان حديث قدمه حامد على مسمع وشهود من سرور عمه ، وعمرو أبيه . قال مخاطبا ابن عمه :

— اسمك على رأس قائمة سوداء فى الداخلية ..

فقال أمير ضاحكا ،

وكان الضحك عادته :

— لى الشرف ..

فأشار ابن عمه إلى أثر الجرح فى صدغه وقال :

— ما كل مرة تسلم الجرة .

وقال له أبوه :

— لا يتورعون عن فصلك من الكلية ..

وقال حامد :

— إنى وفدى مثلك ، ولكن لا بد من النصيحة ..

وكان الشاب لا يخفى احتقاره لآل عطا وآل داود ، وكان يشعر بفتور عواطف أبيه نحوهما . وتهكمه عند كل مناسبة بأصلهما . ومضى أمير يتألق فى سماء السياسة فى أوساط الشباب الوفدى ، ويقدم لزعماء الوفد ، ويطير بطموحه الوطنى إلى آفاق بعيدة . وحاول شقيقه لبيب

— وكان وكيل نيابة فى ذلك الوقت — أن يفرمل من اندفاعه ولكنه قال له :

— قد عرفت سبيلى ولن أتراجع عنه ..

فسأله بهدوئه الطبيعى :

— وإذا رفت ونحن فقراء كما تعلم ؟

فقال بثقة :

— فى تلك الحال أعمل فى الصحافة ..

ولكنه لم يرفت ولم يعمل فى الصحافة ولم يواصل جهاده السياسى . ففى أوائل عهد إسماعيل صدقى ، وفى طوفان المظاهرات والتى قامت احتجاجا على إلغاء دستور ١٩٢٣ ، أردته رصاصة قتيلا فى شارع محمد على . وقد تولى رجال الأمن دفنه مع كثيرين حتى لا تهيئ جنازاتهم فرصة لقيام مظاهرات جديدة ، ولم يسمح لشهود دفنه إلا لأبيه وعمه وإخوته ، وقد هز موته المبكر آل سرور من الأعماق ، وكذلك آل عمرو ؛ وتذكروا ما قاله له الشيخ قاسم فى آخر زيارة لبيت عمه :

— سترفع العلم الأحمر .

فأولوا قوله بأنه إشارة إلى دمه المسفوح يوم استشهاده !

« حرف الباء »

« بدرية حسين قابيل »

ولدت فى شقة بعمارة حديثة بشارع ابن خلدون ، فكانت بكرية حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلى وسميرة كريمة عمرو أفندى والرابعة فى ترتيب ذريته . وكان الحى يعبق برائحة اليهود المتفرنجين . وكانت الشقة تشرق بالأناقة وحسن الذوق ويسر الحياة . وبنمو بدرية جرت العذوبة فى ملامحها والرشاقة فى أطوار سلوكها . وكانت إذا زارت البيت القديم فى بيت القاضى بصحبة والديها لفتت الأنظار بنضجها المبكر . ويضحك جدها عمرو أفندى ويقول :

— الظاهر أنها ستستعمل الحجاب والنقاب قبل الأوان .

فيقول حسين قابيل :

— ولكنها يا عمى ستواصل تعليمها إلى النهاية ..

فتقول راضية ضاحكة :

— يا له من عالم مجنون . ولكنه لذيذ .

فتقول سميرة :

— لن نفرق بين البنات والصبيان فى شىء ..

وتسألها راضية :

— وإذا جاء عريس فى السكة ؟

فتقول سميرة دون تردد :

— عليه أن ينتظر أو يذهب مع السلامة ..

فيقول الأب مداريا اعتراضه بابتسامة :

— سميرة .. أنت خواجاية غريبة فى أسرتنا !

وفعلا حين المراهقة رآها تاجر فى زيارة لدكان والدها فأراد أن يخطبها ، ثم عدل لما عرف أن عليه أن ينتظر حتى تنتهى من تعليمها . ولكن جاء زائر آخر عجزوا عن التعامل معه . كانت قد جاوزت الخامسة عشرة ، وكانت تجالس أمها وإخوة لها فى الشرفة ، عندما سقطت على وجهها متصلبة الجسد مرتجفة الأطراف وفوها ينثر الزبد .. آه .. إنه الصرع . وكانت مأساة قاسم قد حفرت فى الوجدان .. ولكن هذا صرع شديد العنف . واستدعى الطبيب ونصح بالراحة وتغيير الهواء ومزيد من لين المعاملة ، وانقطعت عن المدرسة ، وحلت فى عينيها النجلاوين ، مكان النظرة المتألقة ، أخرى خابية ذاهلة ، وتلاشى الحوار وحل محله هذيان . واستغاثت سميرة بأمها ، وقال حسين قابيل :

— لو كانت تملك نفعا لنفعت به ابنها .

ولكن سميرة لم تأخذ بذلك المنطق ، وجاءت راضية ببخورها ورقاها وتعاويذها . وطافت بالست أضرحة الأولياء وآل البيت ، ومضت الحال من سيئ إلى أسوأ ، فلم يبق منها إلا خيال .

وفى صباح يوم من الأيام قالت بدرية لأمها :

— رأيت فى النوم أميرا يدعونى إلى نزهة فى القناطر ..

فران التشاؤم على قلب سميرة ، وعند الضحى احتضرت الفتاة ثم أسلمت الروح . هكذا فقدت سميرة بكريتها كما فقدت مطربة بكريها ، ولكنها فقدتها وهى فى أوج صباها ، وأحاط بها المعزون من آل عمرو



وسرور ، ومحمود بك عطا وأحمد بك عطا ، وعبد العظيم باشا داود .
وشد ما حزنت راضية ، وكانت تتذكر حال ابنتها وتناجى ربها قائلة :

ــ رحمتك يا رحمٰن يا رحيم .

وكان سرور أفندى يحنق عليها فى باطنه ويتهمها بأنها كانت السبب فى عدم اختيار إحدى كريمتيه لأحد أبنائها ، فراح يشنع بها كعادته فى ذلك ويقول لزينب زوجته :

ــ كل ذلك موروث عن أسرتها فما من رجل بها أو امرأة إلا وبه مس من الجنون ، وهى فى مقدمة الجميع ..

« بليغ معاوية القليوبى »

هو آخر عنقود الشيخ معاوية القليوبى ، وشقيق راضية زوجة عمرو أفندى . وقد ولد فى بيت الشيخ بسوق الزلط بباب الشعرية ، ولعله المولود الوحيد الذى أنجبه الشيخ بعد خروجه من السجن . ونشأ من صغره نشأة دينية ، وألحقه أبوه بالأزهر فى سن مبكرة . ويزور شقيقته فى بيت القاضى فيلفت الأنظار بشبابه وجبته وقفطانه وعمامته ، ويحدث فى أسرة راضية أثارة تجمع بين الاحترام والفكاهة معا ، وهو بطبعه يشبع الناحيتين ، فيرتل القرآن بصوت جيد استجابة لأخته ، ويداعب البنات والصبيان بالملح . وكان ذا وجه قمحى مستدير جذاب الملامح ، ولا يخفى حبه للطعام اللذيذ ، وخبرته بصنوفه لا تقل عن خبرته بالدين الذى يدرسه . وتقول له راضية بلسانها اللاذع :

ــ الأصلح أن تكون طباخا من أن تكون عالما من علماء الدين

كأبيك ..

فيقهقه قائلا :

ــ أنا رجل حائر بين أب عالم وأخت مؤاخية للعفاريت ..

فى ذلك الوقت كان الشيخ معاوية قد انتقل إلى جوار ربه ، وقد تمت خطبة راضية على يديه ولكنه لم يشهد دخلتها . وعقب وفاته لم تجد غرائز بليغ من يكبحها . وفى جلسة جمعت راضية مع جليلة أمها العجوز فوق الكنبة ، فى مدخل البيت الذى يتصدره الفرن وتقع البئر فى جناحه الأيسر ، فى جلسة حزينة لاحظت راضية أن أمها غارقة فى بحر من الغم على غير عادة ، ولما سألتها عما بها قالت :

ــ أتصدقين يا راضية ؟.. أخوك الشيخ الأزهرى بات يرجع كل ليلة سكران فاقد الوعى ؟

وفزعت راضية وهتفت :

ــ أعوذ بالله ..

ــ أنا .. أمامه بلا حول ..

ووجدت راضية نفسها أعجز من أمها حياله .. واستعانت بعمرو أفندى ولكن بليغ كان يتظاهر بالندم ويتمادى فى ضلاله . وأثار فيما حوله استهجانا عاما وسخطا متصاعدا ، فترامت الأنباء إلى إدارة الأزهر ، وانتهى الأمر بفصله وطرده بدون أن يحصل على العالمية . وجد نفسه ضائعا وبلا مورد . وكانت أمه تملك قطعة أرض فضاء فنزلت له عنها فباعها ، وقرر أن يستثمرها فى بقالة الجملة . وسافر إلى أهل أبيه فى قليوب وراح يشترى الجبن والسمن ، ويحملها إلى القاهرة ليوزعها على البقالين ، وقامت الحرب العظمى الأولى فأثرى ثراء مذكورا وتحسنت أحواله .

ومن يومها أخذ نجمه فى التألق والصعود . وفى تلك الفترة تزوج من أمينة الفنجرى أسرة ذات مال واحترام ، ولما قامت الحرب العظمى الثانية بلغ غايته من الثراء ، فشيد العمائر ، وبنى لنفسه سرايا فى القبيسى عرفت فى الحى « بعابدين القبيسى » لعظمتها وفخامتها ، ولم ينجب إلا ولدا واحدا رآه من كبار القضاة ، وأثبت أنه تاجر ماهر ، ولكنه لم يتخل عن الداء الذى طرد من أجله من الأزهر حتى آخر عمره . وكان يزور بيت القاضى فى الحنطور تارة أو السيارة فيما بعد ، محملا بالهدايا ، مشيعا فى الخلق الأثر الذى يتابعه خفية بسرور لا مزيد عليه . وكان يحافظ على صلاته وصومه وزكاته محافظته على كأسه ، ويثابر على الاستغفار مثابرته على الغرور والفخار . وقد امتد به العمر حتى مشارف الخمسينات ، بعد أن رحل أحمد عطا وعمرو وسرور ومحمود عطا وجليلة أمه وأخواته نهيرة وشهيرة وصديقة فلم يبق بعد إلا أخته الكبرى راضية مؤاخية العفاريت . وقد أصيب بتليف الكبد ، ولازم الفراش الوثير نصف عام ثم فارق الحياة وهو نائم ، أو هكذا خيل لزوجته أمينة الفنجرى .

« بهيجة سرور عزيز »

شهد ميدان بيت القاضى ملاعب طفولتها مع أخيها لبيب وأختها جميلة ، ومنذ نشأتها خالطت بنات وأبناء عمها عمرو . وجمع الطبع الهادئ بينها وبين أخيها الأكبر لبيب وابنة عمها سميرة ، وإن ماثلت فى العمر ابن عمها قاسم . تبدى وجهها فى هالة بيضاء كأمها ست زينب مشربة بحمرة . صافية العينين الخضراوين ، فى صوتها دسامة تذكر بصوت

والدها سرور أفندى . وفى سجيتها رزانة فطرية جرت عليها تهمة ظالمة بثقل الدم ، ومحافظة على التقاليد وتدين حصناها ضد عبث الصبا . واكتفى فى تعليمها بالكتاب كبنات عمها وأختها جميلة . وتفرغت مثلهن لفن البيت من طهى وحياكة وما يجرى مجراهما ، وأخذت موضعها منذ وقت مبكر فى محطة الانتظار التقليدية ، انتظار ابن الحلال . ولعل أنسب أحد لها من الأسرة كان حامد ابن عمها ، ولكن آل عطا المراكيبى استولوا عليه بوضع اليد مما أثار أشجان سرور أفندى وزوجته زينب هانم . وكانا قد مرا بالتجربة نفسها عندما راودتهما الأحلام فى زواج عامر من جميلة . وعلى ذلك قال سرور لشقيقه عمرو :

ـــ ألم تفكر فى بهيجة قبل أن تهدى حامد لمحمود المراكيبى ؟

فقال له عمرو :

ـــ نحن يا سرور فقراء على باب الله ونبحث لطيورنا عن ريش ، وابنتك جميلة والحمد لله ولن يطول انتظارها ..

من أجل ذلك تناقضت عواطف سرور حيال شقيقه الأكبر بين الحب والمرارة ، كعواطفه حيال أهله جميعا مما أطلق لسانه فيهم كالخنجر بلا رحمة ، ومما أنزله فى النهاية من قلوبهم منزلة لا تقارن بحال بالمنزلة التى حظى بها أخوه عمرو . وغضبت زينب زوجته لذلك الجواب الناعم المحبط الذى يلطمهم به للمرة الثانية ، وقالت بسخط شديد رغم أنها لم تخرج عن برودها السطحى :

ـــ أنا أعرف السر وراء ذلك كله !

فقال سرور :

ـــ المسألة أن أخى شديد الشعور بضعته بين أقاربه الأغنياء .



ويتحرق دائما على التعلق بفروعهم العالية ..

— ولا تنسى راضية ربيبة الجان والسحر أنها تغار منى وتضن على بالخير .

لم تكترث بهيجة لضياع حامد .. كانت تنفر من خشونته وابتذاله . فى الوقت نفسه راقبت بازدراء شديد العبث الفاضح الذى تمارسه أختها جميلة مع ابن عمها قاسم . كانت أختها ابنة ست عشرة وابن عمها فى الثانية عشرة أو يزيد قليلا ، فما هذا الذى تضبطه أحيانا فوق السطح أو تحت بئر السلم ؟!. الأخلاق تأباه والدين يتوعده وهى تكتمه خوف العواقب . ولما خطبت جميلة وعقلت وجدت نفسها تفكر فى قاسم بدورها . لم تكن كأختها النزقة المجنونة . خفق قلبها بعاطفة رقيقة ولكن داخل قفص ذى قضبان صلبة من الحياء والتقاليد . وقد انتبه الفتى لها وقرأ فى عينيها الصافيتين النداء الصامت ، وسرعان ما لبى مفعما بالشهوة والأمل فى أن يواصل معها العبث الذى انقطع بضياع جميلة . ولكنه وجد قلبا محبا وإرادة من فولاذ . وحام حولها كالمجنون حتى قالت لها أمها :

— إنه من سنك فلا يصلح لك .

لم تعترض ولكنها لم توافق فقالت الأم :

— أمامه مرحلة طويلة ولا تنسى أمه ..

وشعرت بالتعاسة . ولما ألم بالفتى ما ألم فاعتبر مفقودا غرقت فى التعاسة حتى قمة رأسها . ولم تر بدا من العودة إلى .. محطة الانتظار . ولكن انتظارها طال دون سبب حتى وضعتها ألسنة الأسرة فى سلة واحدة مع دنانير بنت عمتها رشوانة . البنت جميلة ومثال كريم للأخلاق الفاضلة ، فلم صد عنها الخطاب ؟!. وطال الانتظار وانكسار القلب حتى توفى عمها عمرو وأبوها سرور وأمها زينب .

وجاء عام ١٩٤١ وهى وحيدة فى بيتهم القديم المجاور لبيت عمها فى بيت القاضى ، تعاونها أم سيد ، وينزل بها أخوها لبيب كالضيف الذى أقصاه عمله عن القاهرة . وجعلت تقترب من الثلاثين وهى تمضغ اليأس ليل نهار ، وليس لها من الدنيا إلا نصيبها من معاش أبيها . وفجأة — وكأنما بوحى — انتبه لها الشيخ قاسم من جديد وقال لأمه :

— أريد أن أتزوج من بهيجة !

واعتبرت راضية الطلب كرامة من كراماته ، وأمرا تنزل يحيط به الغمام ، فحدثت لبيب فى أول زيارة . ففكر الرجل طويلا . ابن عمه لا ينقصه المال ولكن ..؟!. وعرض الأمر على أخته فتلقى الموافقة . أهو اليأس ؟ أهو الحب القديم ؟.. أهو الخوف من الوحدة ؟..

وتم الزواج الذى تندرت به الأسرة طويلا فى ليلة تعرضت فيها القاهرة لغارة جوية طويلة وزلزلت أركانها بدوى المدافع المضادة ..

وانتقلت بهيجة إلى بيت عمها ، لأن قاسم أمر بألا يغادر بيته . ومضت أعوام دون أن تنجب ولكن قاسم طمأنها قائلا :

— سوف تنجبين ذكرا عندما يرضى القمر ..

وقد أنجبته فى عام ١٩٤٥ وأسماه أبوه النقشبندى . بدأ حياته التعليمية عقب قيام ثورة يوليو ، وثمل طوال عهد دراسته بالعظمة والمجد ، وحظى بوجه مشرق وقوام رشيق وذكاء لماح ، وتخرج مهندسا عام ١٩٦٧ . وتقرر إرساله فى بعثة ، ودعت له راضية وهى فى قمة شيخوختها ، وقال له أبوه :

— الله معك ، إنى أودعك بلا دموع ..

وسافر النقشبندى إلى ألمانيا الغربية بعد مضى أشهر على ٥ يونية ،

مهيض الجناح حزين الفؤاد ، وعلم هناك بموت الزعيم فلم يحزن ، ولما حصل على الدكتوراه عدل نهائيا عن العودة إلى مصر ، وعمل فى ألمانيا وتزوج من ألمانية ثم تجنس بالجنسية الألمانية — ولما علم أبوه بذلك قال مرة أخرى :

— الله معك ، إنى أودعك بلا دموع ..

وبعد رحيل راضية بقى قاسم وبهيجة فى البيت القديم وراء شجرة البلخ التى شهدت حبهما القديم ، ومازال قلباهما ينبضان بالحب والعزلة ..

— حرف الجيم —

« جليلة مرسى الطرابيشى »

ولدت فى أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر فى باب الشعرية لأب كان يعمل فى مصنع الطرابيش الذى أنشأه محمد على فيما أنشأ من مصانع . وكان الأب قريبا للشيخ القليوبى وغير بعيد من بيته بسوق الزلط ، فخطب ابنته جليلة لابنه الشيخ معاوية الذى بدأ حياته فى ذلك الوقت كمدرس مبتدئ بالأزهر الشريف . هكذا صارت ربة البيت القديم بسوق الزلط وعرفت فى الحى بجليلة الطرابيشية . وكانت ذات قامة طويلة ، جعلتها تنظر إلى الشيخ من عل — الأمر الذى لم يغفره لها أبدا — سمراء رشيقة ذات جبهة عالية وعينين بنيتين نجلاوين ، وقد أنجبت له مع الأعوام راضية وشهيرة وصديقة وبليغ. وعرفت بأنها موسوعة فى الغيبيات



والكرامات والطب الشعبى ، وكأنما أخذت من كل ملة بطرف بدءا من العصر الفرعونى ، ومرورا بالعصور الوسطى . وحاول الشيخ معاوية ما استطاع أن يلقنها أصول دينها ولكنه من خلال المعاشرة الطويلة أخذ منها أكثر مما أعطاها . فكان يطاوعها «حين المرض» وكلما دهمه خطب من خطوب الحياة ، يسلمها رأسه لترقيه ، أو يستسلم لبخورها ، أو يردد وراءها بعض التعاويذ . وكانت صلبة ، عنيفة إذا لزم الأمر ، فكانت الجارات يعملن لها ألف حساب ، وقد لقنت بناتها جميع ما لها من علم وخبرة ، فاستجبن لها بدرجات متفاوتة ، وبرعت راضية فى استيعاب ميراثها أكثر من الجميع وحظيت بحبها أكثر من أى من ذريتها بما فيهم الابن بليغ . وكلما أراد الشيخ معاوية التسلط عليها صمدت له بصلابة ، حتى التهديد بالطلاق لا يخيفها ، ولم تغب عنه قوة أخلاقها ومهارتها المنزلية الفائقة ، فتراجع راضيا بالمهادنة والمشاركة . وكانت تقدس معتقداتها لدرجة التفانى والتصلب ، وتجلى ذلك يوم وفاة زوجها الشيخ معاوية فى عصر الاحتلال . كانت خطبة راضية لعمرو قد أعلنت عقب اتفاق جرى بين الشيخ معاوية وعزيز زياد والد عمرو وصديق الشيخ . وعقب الوفاة بساعة واحدة ، وصوات ست جليلة يذيع الخبر المشئوم ، وصل نيشان العروس ، أولى هدايا العريس ، على غير علم منه بما حدث . وتقبلت جليلة الهدية — سمكة فى حجم ابنها بليغ — ونفحت حامليها بما قسم . وانقبض قلبها لمجىء النيشان وسط هدير الصوات ، وأشفقت من عواقب ذلك على مستقبل أحب ذريتها إليها . ووقفت فوق رأس الشيخ المسجى بلحافه الأخضر وناجته من قلبها المكلوم :

— اغفر لى يا معاوية ..

وهرولت إلى حجرة فى الجانب الشرقى للبيت تطل من بعيد على جامع سيدى الشعرانى وهى تقول لنفسها :

— لا يفك عقدة النحس إلا استقبال الهدية بما يليق .

وجففت دموعها ووقفت وراء النافذة وأطلقت زغرودة مجلجلة ترقص على أنغام فرح متدفق . ورجعت بسرعة إلى حجرة الجثمان وراحت تصوت من أعماق صدرها . ولم يغب ذلك عن بعض الآذان الماكرة ، وتهامسن به ، ثم تندرن به على مدى العمر وتنوقل كشهادة حية على غرابة أطوار المرأة المثيرة ، التى جمعت بين التقوى والحب والجنون . ولكن لم ينل خطب من بنيانها المتين ما ناله رحيل زوجها ، حزنت عليه بالطول والعرض ولبثت تلهج بمآثره الحقيقية والخيالية طيلة عمرها الطويل . فقد عمرت حتى جاوزت المئة .. بعشرة أعوام ، عاصرت فيها فترة من حكم محمد على وعهود إبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق والثورة العرابية وثورة ١٩١٩ . ولم يرسب فى أعماقها زمن كالثورة العرابية التى اعتبرت زوجها من أهم رجالها ، وما أكثر ما روت من بطولاته وسجنه لأحفادها ، وذهب بها الخيال فى ذلك كل مذهب حتى ليخيل للسامع من أبناء وبنات راضية أن الشيخ معاوية هو الذى عرب محمد على ، وهو الذى اعتمد عليه عرابى بعد الله ، واختلطت صورة عرابى فى رأسها بعنترة والهلالى وآل البيت إكراما قبل كل شىء لذكرى الشيخ معاوية . ولم تسعد بذريتها بسوى راضية وأبنائها . وحظى عمرو برضاها ، وإن لم تزر بيت القاضى إلا مرات معدودات بسبب طعونها فى السن ، أما شهيرة وصديقة وبليغ فقد تركن فى قلبها جراحا لا تلتئم . أنت تقول لبليغ وهو ملقى مخمورا على كنبة المدخل :

— أنت سكير عاص وعار على زيك الشريف ..

ولما أورقت شجرته وصار تاجرا مرموقا قالت له :

— وهبك الله الثروة ليمتحنك فاحذر امتحانه ..

وكان بليغ يحبها ويشك فى سلامة عقلها ، وقد رجعت شهيرة إلى بيتها طريدة فملأته قططا ، أما صديقة فواأسفى عليك يا صديقة ..

وكان قاسم أحب الأحفاد إلى قلبها . يغمرها بقبلاته ، وينصت لحكاياتها ، ويصدقها بقلبه وحواسه ، ولما حصل ما حصل ، لم تجزع وقالت لراضية :

— أبشرى ، ربنا وهبك وليا ..

وفى السنوات الخمس الأخيرة من عمرها نهاية الربع الأول من القرن وعند مشارف الثلاثينات — أقعدها الكبر ، وسدت المنافذ بينها وبين الوجود ففقدت السمع والبصر ، وبقى لها الوعى فكانت تعرف الأحباب بأناملها ، وقامت شهيرة بخدمتها ما استطاعت حتى ضاقت بها ، وكانت أحن على القطط منها على أمها . وكانت تشكوها إلى راضية كلماقامت بزيارة لها ، فتعاقب راضية شقيقتها وتذكرها بوصية الرسول بالأم فتقول شهيرة :

— ما أسهل الوعظ ، ولكنك تعيشين مكرمة فى بيتك وتلقين علىّ وحدى تنفيذ الوصية !

وفى إحدى الزيارات وجدت راضية المدخل يموج بالقطط ، تموء وتتداخل بأسلوب وحشى ينذر بالدهشة ، ورأت جليلة ملقاة على الكنبة مسلمة الروح ، وكانت شهيرة نائمة فى الدور الأعلى ..

« جميلة سرور عزيز »

لم ير ميدان بيت القاضى وأشجاره المثقلة بأزهار « ذقن الباشا » أجمل منها إلا تكن مطرية ابنة عمها عمرو . وهبتها أمها بشرتها العاجية وعينيها الخضراوين النجلاوين ، وفاقت أمها بفيها الأنيق كالقرنفلة وجسمها المدمج . وبخلاف أمها كانت تموج بالحيوية والخفة واستمدت من غرائز أبيها لفحات حارة خضبت وجنتيها بماء الورد الأحمر ، وسبقت زمنها لا بالتعليم فلم يجاوز نصيبها منه محو الأمية كأختها وبنات عمها ، ولكنه بالتحرر التلقائى المنطلق بقوة نضج مبكر ونداء الأشواق المبهمة ، فتلوح فى النافذة لتسقى أصيص الورد ، أو تخطر بنصف نقاب فيما بين بيتها وبيت عمها المجاور ، أو تلاقى النظرات الجائعة بدلال متمرد ، فى طفولتها كانت تجول فى الميدان بصحبة أخيها الأكبر لبيب ، وانضم إليهما بعد سنوات قاسم . كانت تكبر قاسما بسنوات ولما ناهزت الحلم لم تجد سواه لعبة لقلبها المتحفز . وكلما خلت به لاعبته لتوقظه من براءته فتبعها فى حيرة ثملة ممتعة كرؤية جمال الفجر لأول مرة ، ولمس بأنامله المتشنجة جواهر حال الجهل بينه وبين معرفة قيمتها . ولما قارب الثالثة عشرة سقط فى الشهد قبل الأوان . وتفتح على راحتها الناعمة المخضبة بالحناء كالوردة وأخلد بكل عذوبة إلى نفثات صدرها المضطرم ، وبسبب من تلك الرعونة تصدى لها أخوها أمير ، وعنفها حتى ضاقت به وبكت . وقالت له أمه :

— تذكر أنك أخوها الصغير ..

فقال لها :

— سمعتنا !

فقالت زينب بهدوئها الذى لا تخرج عنه :

— إنى أعرف بنتى تماما وهى مثال للأدب ..

ولما جاوز أمير حدوده قال له سرور أفندى :

— دع الأمر لى ..

وكان سرور أفندى يميل إلى التسامح المعتدل ، وكان فى ذلك الوقت يتساءل عما جعل عامر ابن أخيه عمرو يميل إلى عفت بنت عبد العظيم داود دون جميلة بنت عمه . ويقول لزوجته :

— الله يخيبه . أليست بنتنا أجمل ؟

فتقول زينب ساخرة :

— أليس هو ابن راضية المجنونة ؟!

ويقول سرور بمرارة :

— أخى يزعم أنه من أهل الطريق ، ولكن رغبته فى القرب من أهله الأغنياء تفوق رغبته فى القرب من الله !

والحق أن جميلة أخافت الأسر المحافظة من الجيران فأحجمت عنها رغم جمالها ، حتى قيض لها حظها ضابط شرطة جديدا بقسم الجمالية يدعى إبراهيم الأسوانى . كان ممشوق القوام طويله غامق السمرة ، رآها فأعجبته ، ووجد سمعة البنت طيبة ، فخطبها بلا تردد . وما يدرى قاسم إلا وفاتنته ومعلمته تتغير بين يوم وليلة كتفاحة اجتاحها العطب . اختفت وحل بها وقار ، لا يحل إلا مع الزمن الطويل ، وزفت إلى العريس فى مسكنه بدرب الجماميز فى حفل أحيته الصرافية والمطرب أنور .

وما لبثت الأسرة الجديدة أن غادرت القاهرة بحكم عمل الزوج ، فمضت أعوام وأعوام وهى تشرق وتغرب دون إنجاب ، وبعد أن مات سرور أفندى قبل أن يرى أحفاده من جميلة . وفى أثناء ذلك حصلت لإبراهيم الأسوانى أمور . فقد كان وفديا ، وافتضحت عواطفه فى تراخيه بالقيام بواجبه فى عهود الديكتاتوريات ، حتى انتهى الأمر بفصله . وكان قد ورث عشرين فدانا فرحل بأسرته إلى أسوان ، وانضم إلى الوفد جهرا ، وانتخب عضوا بمجلس النواب ، وثبت عضوا دائما بالهيئة الوفدية . وأنجبت جميلة بعد العلاج من عقمها خمسة ذكور عاش منهم سرور ومحمد ، وكان الزواج قد حولها من الرعونة إلى رزانة عجيبة وجدية فائقة وأمومة سخية ، وكأنها قد تمادت فى بدانتها إلى درجة يضرب بها المثل . ولم يكن إبراهيم الأسوانى يخلو من انفعالات وأحوال ولكنها كانت كالمحيط الذى يستقبل الأمواج العالية والعواطف الهادرة ثم يهضمها فى صبر وأناة كى يعود إلى هدوئه الشامل وسيادته الكاملة . فهذا يصدق أنها هى التى نصحت أمانة بنت مطرية مرة فقالت لها :

— على الزوجة أن تكون مروضة للوحوش !

ولما قامت ثورة يوليو أيقن إبراهيم الأسوانى أن حياته السياسية قد انتهت ، فاعتزل فى أرضه وتفرغ للزراعة ، وكان ابناه سرور ومحمد قد صارا ضابطين طيارين ، وانقرضت هذه الأسرة بقضاء لا راد له . أما إبراهيم الأسوانى فقد قتل فى تصادم بين قطارين عام ١٩٥٥ . كان فى الخامسة والخمسين وجميلة فى الخمسين . وأصيبت طائرة سرور فى حرب ١٩٥٦ ولقى مصرعه ، ولحق به أخوه محمد فى حرب ١٩٦٧ ، وأنقذت جميلة من الوحدة والأحزان عام ١٩٧٠ فماتت بسرطان المعدة وهى فى

الثالثة والستين من عمرها . وكانت حين وفاتها كأنها مقطوعة من شجرة لا أهل لها .

« حرف الحاء »

« حازم سرور عزيز »

من أيامه الأولى نشأ عزوفا متوحدا يقف أمام بيته مبتعدا عن إخوته وأبناء عمه يتفرج على الرائح والغادى بين حارات الميدان . لم يدخل بيت عمه عمرو مرة واحدة ، وكان عمرو يقول لسرور ضاحكا :

— ابنك حازم عدو للبشر ..

وكان وسيما كأمه ، قصيرا كبهيجة ، وفى عينه اليسرى ضعف طبيعى بلغ بها العمى ، ولم ير ضاحكا أو منفعلا قط . وتجلت نجابته منذ كان فى الكتاب فأوشك أن يعيد سيرة أخيه الأكبر لبيب ، وانحصر فى ذاته فلم يعرف هدفا فى الحياة سوى النجاح والتفوق ، وجهل وجوده جميع أهله من آل عطا وآل داود . ولتفوقه لم يكلف أباه مليما فى تعليمه ، حتى الهندسة دخلها بالمجان بكل جدارة وتبين لأخيه أمير أنه لا يعرف اسم رئيس الوزراء ولا ينظر فى الصحف ولا تصل إلى وجدانه أى موجة من بحر الأحداث التى يضطرب بها الوطن . وسأله :

— أتظن الدنيا مذاكرة فحسب ؟!

ولكن لم يكن بوسع أحد أن يجره إلى مناقشة على الإطلاق . ولما رحل أمير ضحية لجهاده ذهل وصمت ووجم ولم ينبس بكلمة ولم يذرف

دمعة ، وسرعان ما واصل حياته وتخرج مهندسا فى عام ١٩٣٨ ، ولم يتجه نحو الحكومة بسبب عجزه ، ولكنه وجد وظيفة أفضل فى شركة مقاولات الدكتور محمد سلامة الذى كان أستاذا له فى المدرسة . كان الدكتور المهندس يعجب به ويحبه ويرى فيه مثالا للذكاء والعمل والبعد عما يثير المتاعب . وكان يزور أستاذه فى قيلته بالدقى لإنجاز بعض الأعمال ، وهناك عرف كريمته سميحة . كانت على درجة من الجمال مقبولة ولكنها كانت كريمة مديره وأستاذه وهو الأهم . ولم يغب عن فطنته أن البك يشجع تعارفهما ، وأدهشه ذلك لما يعرفه الرجل من بساطة أصله وفقره . وركبه الغرور حينا من الدهر ، إلى أن تم الزواج وأقام فى شقة بعمارة يملكها الدكتور المهندس وحسب أنه ملك العالمين . هناك وضحت له الحقيقة وجابهته بوجه منذر بالخطر ، بأن العروس ذات جهاز عصبى لا يخلو من خلل ، وسرعان ما أسفرت عن طبيعة لا يمكن مداراتها . كانت عاصفة تهيج وتنتشر لأوهى الأسباب . وربما بلا سبب ألبتة . وكان قد خلق بجهاز مانع للصواعق فطرى اقتبسه من ست زينب أمه . وكان يعيش برأسه لا بقلبه ، فقال لنفسه وهو ملتف بالروب الحريرى الكحلى وغائص فى الفوتيل بحجرة المعيشة :

— ليكن ، فهى زيجة على أى حال عادلة ..

ضمنت له مستقبلا يعز عن الأحلام ، وهو يملك من الذكاء والهمة ما يجعله قادرا على استثماره على خير ما يمكن أن يكون ، ولو كانت سميحة عروسا كاملة أو حتى عادية لاستحقت زوجا من طبقتها فى درجة عالية أو فى السلك السياسى . ولقد أهداها أبوها إليه بعد تفكير وتدبر وعليه أن يقبل الهدية بتفكير وتدبر كذلك ، وقال لنفسه أيضا :

— إن تكن مريضة فأنا الطبيب !

وقد كان .

وتتابعت وفيات آل سرور وعمرو الهامة قبيل الحرب العظمى الثانية، وفى أثنائها بدأت برحيل عمرو ، فسرور ، ثم زينب . وكانت سميحة قد ضاقت بزيارات أمه وأبيه وإخوته فقررت فى لحظة جنون ألا تشارك فى العزاء ! ونظر إليها بتوسل وقال :

— ولكن ..

وضمن لهجته كل المعانى المطلوبة ولكنها قالت بحدة :

— لن أذهب إلى ذلك الميدان الملىء بالحشرات ، ولا أحب أن يجيئنى أحد منه ..

ولم يغضب ولم ينبئ وجهه عن شىء ، وسرعان ما انقطعت العلاقة بينه وبين أهله . اندمج فى أهلها كظل لها ونسى أصله . غير أن طاعته العمياء لم تكفل له السلامة . فعلى أثر سهرة فى شقته شهدتها حماته وأختها وبعض الأقارب ، قالت له لما انفردا بنفسيهما :

— لم تعجبنى ، غلب عليك الصمت ، وبدرت كلماتك القليلة بلا معنى .. !

فقال معتذرا وبأسلوب غاية فى الأدب والرقة :

— الكلام الكثير يوجع رأسى ، ولم يجر ذكر لأى موضوع هام ..

فصرخت :

— إن لم يكن الكلام فى الهندسة يصبح لغوا ..؟

فلاطفها بابتسامة وإذا بها تثور وتهدر بأقسى الألفاظ ثم تقبض على فازة ثمينة وتقذف بها الجدار فتتحطم وينهال حطامها على غطاء الكنبة

المطرز بالكانافاة . ونظر إليها باسما مشفقا ثم قال بحنان :

— لا شيء فى الوجود يستحق أن تجشمى نفسك من أجله هذا الغضب كله .. ولكن الشقة شهدت أيضا العناق والأبوة والأمومة ، وقد أنجبت له حسنى وأدهم ، وعلا مركزه بثبات وجدارة فى الشركة ، وزاد اعتماد محمد بك سلامة عليه مع الأيام حتى حل محله — بعد وفاته — نيابة عن سميحة ، وشارك فى رأس المال بمدخراته ، وازدهرت الشركة فى عهده أكثر من ازدهارها الأول ، وشيد حازم فيلا فى الدقى انتقلت الأسرة إليها ، وقد هضم نزواتها جميعا ببطولة خارقة ، ولكن بعض النزوات بدت عسيرة فى هضمها . مثال ذلك أن محمد بك سلامة كان عضوا فى الهيئة الوفدية ، على حين أن حصيلة حازم من السياسة كانت صفرا ، ولكنه بإزاء حماسها أعلن فى البيت على الأقل وفديته . وهى لم تقنع بالإعلان البارد ، فرجع يوما إلى شقته فرأى صورة النحاس معلقة مكان صورة سرور أفندى أبيه . نظر واجما دون أن يجرؤ على إبداء أى ملاحظة فقالت :

— إنى أتشاءم من صور الأموات ، وهذه صورة زعيم الأمة .. ولم يبد أى ملاحظة حتى بعد أن رحل محمد بك سلامة والنحاس وظلت صورتاهما بمكانهما ! ويوم انتقلت الأسرة إلى الفيللا الجديدة ضحكت ضحكتها العالية وقالت :

— احمد ربنا يا غبى ، رفعناك من الحضيض إلى القمة ..

فقال باستسلام :

— الحمد لله على كل شيء ..

فقالت مقطبة :

— ولا تنس نصيبى من الشكر ..

فقال ببروده المعهود :

— أنت الخير والبركة ..

ولما قامت ثورة يوليو خاف أن تكون وفديته المزعومة قد جاوزت جدران مسكنه ولكنه لم يتعرض لسوء ، ودأب على مدح الثورة فى شركته ، والحملة عليها فى بيته مجاراة لسميحة ، وهو يقلب عينيه فيما حوله مستعيذا بالله . ولدى كل مناسبة تقول بحنق :

— هل سمعتم عن بلد تحكمه مجموعة من الكونستبلات ؟!

فيهمس فى أذنها بتدخل :

— احذرى الخدم .. والجدران .. والهواء ..

وشد ما فرحت بالعدوان الثلاثى وشد ما خابت آمالها . وفى ٥ يونية أغلقت على نفسها حجرتها وراحت ترقص ، وساعة بلغها نبأ وفاة الزعيم زغردت حتى هب حازم واقفا وهو يصرخ لأول مرة :

— أنا فى عرضك !

وكانت الشركة قد أممت ، ولكن سائر مقتنيات الأسرة لم تمس ، وفى عهد السادات بلغ حازم ذروته الحقيقية ، وفتح مكتبا هندسيا وبات فى عداد أصحاب الملايين . وقالت سميحة عن الزعيم الجديد :

— حقيقة أن وجهه أسود ولكن قلبه أبيض ..

ولكن لعل هزيمة سميحة على يد ابنها حسنى فاقت هزيمتها السياسية ضراوة . من بادئ الأمر أرادت أن تسيطر على الذرية كما سيطرت على الأب ولكنها سجلت خيبة كاملة . أما حسنى فقد حطم السدود والقيود ، أما أدهم فلم يخيب أحلامها بعد أن صنع حياته بقراره المستقل

عن الجميع . ولم تجد سميحة من تصب عليه غضبها سوى حازم فقالت له باحتقار :

ــ لولا ضعفك وغباؤك لما كان ما كان ..

وسقطت فى كبرها فريسة للاكتئاب حتى اضطرت إلى قضاء شهر فى مصحة أعصاب بحلوان . وبقى حازم صامدا رغم إصابته بالسكر ، بل لعله تكيف تماما مع معاشرة المرأة المريضة . أجل شد ما تمنى موتها فترة طويلة من عمره خاصة بعد وفاة حميه . كانت تراوده أحلام غريبة ، فيراها مرة ضحية حادث للسيارة ، أو مرض عضال ، أو غريقة فى البحر الأبيض ، أو .. أو ..

ولكنه كف عن أحلامه ، واستوحش البيت حين إقامتها بالمصحة ، واعتبر نفسه قد حقق حلمه الأبدى فى النجاح والثراء ..

« حامد عمرو عزيز »

منذ نشأته الأولى بدأ نبتا شاذا فى أرض أسرته . ولعل عمرو أفندى لم يتعب فى تربية أحد من ذريته كما تعب فى تربيته ، أحب اللعب والعراك واكتسب ثروة من قاموس أوباش الحوارى والأزقة ، وطالما مارس عنفه مع أخواته برغم أن ترتيبه كان السادس بينهم . ونتيجة لذلك تعثرت خطواته فى الكتاب والمدرسة ، وكثيرا ما يرجع إلى البيت القديم ممزق الجلباب أو دامى الأنف فيتعرض لمجابهة أخيه الأكبر عامر ، ولم يكن يتورع عن ضربه أحيانا ، بخلاف عمرو أفندى الذى كان يقنع بالزجر والنصيحة والتهديد ، وتظل راضية من أجله فى تعامل متواصل مع الرقى والتعاويذ وتذر النذور لأضرحة الأولياء .

وكان يضمر أخبث النوايا لبنات الأقارب مثل جميلة وبهيجة ابنتى عمه . ودنانير بنت عمته رشوانة ، لولا سوء سمعته الذى حمل الأمهات على الحذر منه . وامتاز أيضا بين آله بضخامة فى الجسم وكبر ووضوح فى القسمات أضفت عليه حال رجولة مبكرة . وكان حلمه الأثير أن يقود عصابة مثل مشاهير الفتوات الذين يهدمون اللذات فى حيه العريق . ولما حصل على شهادة الكفاءة بعد أكثر من محاولة نصح محمود عطا المراكيبى والده بأن يختصر الطريق ويدخله مدرسة الشرطة ، قال :

ــ هو الحل الذى وجدته لابنى حسن .

ورحب عمرو أفندى بالنصيحة فتعهد محمود عطا بتذليل العقبات بشفاعته التى لا ترد ، باعتباره من الأعيان المرموقين . هكذا دخل حامد المدرسة مع حسن ابن خال أبيه فى عام واحد . وجاهر محمود برغبته فى تزويج حامد من كبرى بناته شكيرة فسر عمرو بتلك الرغبة التى توثق علاقته بآل المراكيبى ، كما وثق ابنه عامر علاقته بآل داود . هيأ الزواج لفرعه الذابل من أسباب المجد ما لم يكن يحلم به وعزز موقعه فى الشجرة الشامخة فشعر بالرفعة والرضا . وسر حامد أيضا رغم منظر خطيبته الذى لا يسر لطموحه إلى طيبات الحياة . راضية وحدها امتعضت وقالت :

ــ يا له من اختيار يستحق الرثاء ..

فقال لها عمرو :

ــ احمدى الله يا ولية ..

فقالت بحدة :

ــ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه !

فقال الرجل برجاء :



— البيوت السعيدة تقوم سعادتها على الأصل والأخلاق ..
فقالت بسخرية .

— والمال !.. آه يا نارى !

وأفضى سرور أفندى باستيائه إلى شقيقه ، وراح يفسر الأمر فيما بينه وبين نفسه برغبة أخيه الجامحة فى التعلق بأذيال أقاربه الأغنياء ، وبأن محمود عطا اختار بنفسه عريسا لابنته كحامد لشعوره العميق بتفاهة ابنته ، وبأنه إذا لم يظفر لها بشخص بسيط مكبل بأفضاله فلن يتقدم لها إلا بلطجى ممن يطمعون فى مالها واستغلالها ونهبها . ولما اتهمت ست زينب راضية بأنها لا تحب لهم الخير قال لها سرور :

— المسألة أكبر من راضية ، إنها صفقة يبدو حامد فى ظاهرها هو الرابح ، والحقيقة أن الرابح الحقيقى هو المراكيبى وابنته التى ما كانت لتجد عريسا يجبر الخاطر ، وأخى رجل طيب ومغفل ..

ولم تسر واحدة من بنات عمرو ، وقالت صدرية معلقة على الخبر :

— سيتزوج أخى من رجل كامل الرجولة !

ولما قامت ثورة ١٩١٩ كان حامد فى السنة النهائية ، وقد مال قلبه إليها بمجامعه ، واتهم بالتحريض على الإضراب ، وحوكم ، وأنزل إلى السنة الأولى من جديد ، وكان الجميع يستبقون فى بذل التضحيات فلم يحزن عمرو أفندى كثيرا ، وحمد الله على أنه لم يفصل ويلق به فى الطريق . ولما تخرج ضابطا ، كانت مكانة محمود بك قد ارتفعت بإعلان ولائه للملك ، فأمكنه أن يلحق حامد بالمراكز الرئيسية فى الداخلية مع ابنه حسن ، وسرعان ما زفت إليه شكيرة دون مطالبته بأى تكاليف فعلية ، فانتقل من البيت القديم ببيت القاضى إلى سراى ميدان خيرت ليحتل هو

وعروسه جناحا صغيرا فى الطابق الأوسط الخاص بآل محمود .

نقلة ثورية بلا شك ، ربيب الحوارى فى زواياها الكاسدة يجد نفسه بين يوم وليلة فى سراى سامقة ، تحيط بها حديقة غناء ، وتزينها التحف والتماثيل والأثاث الفاخر ، وتطربها لغة الهوانم الرفيعة بأعذب ألحانها ، وتحفل موائدها بأطيب الأطعمة ، وتعبق إلى جانب ذلك بمناخ دينى مهذب لا أثر فيه لغيبيات راضية الخارقة . وجد حامد نفسه فى قفص يحرسه رجل جبار هو محمود عطا المراكيبى وهانم غاية فى العذوبة والجمال هى نازلى هانم ، أما شريكة حياته وقرينته فكادت تكون صورة من أبيها فى تكوينه الصلب ونسخة من أمها فى التهذيب والورع . ولم يكن بوسعه أن يغير من طبعه ، فقد تعامل فى صباه مع البلطجية وها هو يواصل تعامله معهم كضابط شرطة كلما تمادوا فى انحرافهم ! ولم يكن من الممكن أن يولد حب فى خليته الصغيرة ، وما جرب فى حياته سوى اللذة العابرة ، ومنذ الأسابيع الأولى فى حياته الزوجية أسفرت طبيعته عن حقيقتها فى الكلمة والفعل . أجل لم ينس القفص والحارسين ، كان يهاب محمود بك أكثر من أبيه ، ويقف أمامه كما يقف أمام رؤسائه العظام بالداخلية ، فكبح جماحه ، على قدر استطاعته ، وروض نفسه على الرضا بواقعه ، ولكن العادة قاهرة واللسان خائن . وقد ارتعبت العروس وهمست لأمها : إنه غاية فى الابتذال ، أكله وشربه وحديثه ..

وكانت الهانم ست بيت بالمعنى الكامل . طالبتها بالحكمة والصبر ، وقالت لها :

— كل ذلك لا يمنع من أن يكون رجلا صالحا ..

كانت خير وساطة بين الطرفين ولم يدر أحد شيئا عما يدور فى الجناح

الجديد . سرعان ما أعترضت الهانم مشكلة جديدة نشأت عن الكراهية المتبادلة بين راضية وشكيرة . لم تكن راضية تدرى كيف تدارى عواطفها ، وكانت شكيرة لا تمارس النفاق . وكانت المودة بين نازلى هانم وراضية كاملة ، ولكنها كانت فى أعماقها تؤمن بخطورتها ، وقالت لابنتها :

— حذار ، حماتك عليمة بفنون السحر وأسراره الأولياء ، وأنا أصدق ما يقال من أنها مؤاخية للعفاريت ، أعطيها حقها الكامل من الاحترام والمجاملة ..

وكانت تتوسل إلى راضية قائلة :

— من أجل عشرتنا وحبنا اصفحى عن ابنتى وامسحى أى خطأ منها فى وجهى ..

فى خضم ذلك الاضطراب أنجبت له وحيدة وصالح وحظيت من حياتها المتوترة بشىء من العزاء ، رغم أنها حياة لم تعرف الحب ولا السلام ، كما أن منغصاتها انحصرت فى أضيق الحدود . ولما وقع الشقاق بين الشقيقين محمود وأحمد ، وتمزقت وحدة الأسرة ، خشى عمرو أن يجرف ابنه تيار عداوة لا شأن له بها . وكان عمرو يسعى لإصلاح ذات البين ، ويحافظ على علاقته الطيبة بخاليه فنصح حامد بأن يلتزم بموقفه هو — عمرو — وألا يقطع صلته بأحمد بك ، وسعى لدى محمود حتى انتزع منه موافقته على ذلك ، وارتاح حامد لذلك إذ كان يميل فى أعماقه إلى خاله أحمد ويؤمن بعدالة مطلبه . وفى الفترة السابقة للحرب العظمى الثانية وما تلاها من أعوام ، رحل عن الدنيا أحمد وعمرو ومحمود فشعر حامد بتحرره من الرقباء ، وبلغت علاقته بزوجه الغاية من السوء . وقد أشقى ذلك فيمن أشقى وحيدة وصالح فتمزقا بين والديهما . أجل

كانت شكيرة صاحبة الأثر الأكبر فى تربيتهما فنشآ نشأة مهذبة وعرفا بالاجتهاد والتدين ، ولم يعفيا والدهما قط من الاتهام وأدانا معاملته الفظة لأمهما وأن حافظا ما استطاعا أمامه على الحياد بدا به . ولكنه تلقى نجواهما من نظرات عينيهما ، وشعر بالغربة والغضب . وظل حامد على إيلاء حماته بما تستحقه من احترام ومجاملة ، ولكنها اضطرت أن تقول له :

— لقد أدميت قلبى بسوء معاملتك لشكيرة ..

وكان يحقد على شكيرة ويتصور أنها التهمت خير سنى حياته بغير حق . وتلاحيا مرة وتبادلا كالعادة كلمات قاسية ، وإذا بها تصرخ فى وجهه وهى تبكى :

— إنى أكرهك أكثر من الموت ..

وأقدم على الحلم الذى راوده طويلا فطلقها ، وقال معتذرا لقريبه وصديقه وزميله حسن شقيقها .

— معذرة ، لم أعد أحتمل ، وكل شىء بمشيئة الله ..

ولم يعد إلى البيت القديم فى بيت القاضى إلا شهرا واحدا . ولخصت راضية موقفها قائلة :

— ما كان يجب أن يتم ذلك الزواج ، ولكن ما كان يحق لك الطلاق إكراما لوحيدة وصالح ..

رغم إنها اتهمت فى السراى بأن سحرها كان وراء الطلاق كما كان وراء فشل الزواج من أول يوم .

وانتقل حامد إلى شقة فى عمارة جديدة بشارع المنيل دله عليها قريبة حليم بن عبد العظيم باشا داود حيث كان يسكن شقة أخرى بها . وفى الخمسينات وهو يقترب من الخمسين أعجبته أرملة فى الأربعين تدعى عصمت الأورفلى فتزوج منها وجاء بها إلى شقته بادئا حياة جديدة .

ووهنت علاقته بوحيدة وصالح وأن لم تنقطع . ولما قامت ثورة يوليو أحالته إلى المعاش ضمن ضباط الشرطة الذين اعتبرتهم أعداء للشعب ، علما بأنه حافظ على وفديته فى قلبه دائما ، ولكن الثورة عدت الوفديين أعداء للشعب أيضا . وأنطوى على نفسه حينا فى مسكنه مع عصمت حتى تبين له أن حكيم ابن شقيقته سميرة من المقربين ومن أصحاب النفوذ ، فطلب إليه أن يفعل شيئا من أجله ، وفعلا تعين مدير علاقات عامة بعمر أفندى بخمسين جنيها شهريا إلى معاشه . وطابت له الحياة نوعا ما ، ووجد فى الزوجة الجديدة امرأة محنكة تعاملت بمكر حسن مع نزواته وابتذالاته وهيأت له حياة مستقرة .. لا انفصام لها فيما بدا . ولم ينقطع أبدا عن زيارة البيت القديم والتودد الصادق لأمه وأخيه قاسم ، وكان يجد فى غرابة أطوارهما ما يسره ولا يكف عن مما زحتهما . يترك جبينه لأمه تلثمه بحنان ، ويسلم رأسه لها لترقيه وتتلو عليه الصمدية وبعض محفوظاتها من الأوراد ، ويسأل أخاه عن الطالع والمستقبل ، ثم يجول فى ربوع الصبا ويزور الحسين قارئا الفاتحة ، وكان ذلك يمثل الغاية والنهاية فى حياته الدينية . وكان أيضا يزور بيوت أخواته وبيت أخيه عامر وآل داود . وفى تلك الفترة من حياته توثقت علاقته بحليم بن عبد العظيم باشا ، وقد جمع بينهما نفس المصير على يد الثورة ، كما توثقت صلته أكثر بأبن عمه لبيب ، وكان يشارك الأول فى تدخين الحشيش وكان يشارك الأخير فى السكر ، ثم يؤاخى بين أرواحهم نقد الثورة والسخرية برجالها وتذكر أيام العز الماضية . لم ينغص عليه صفوه إلا شعوره المطارد بأن وحيدة وصالح لا يكنان له من الحب ربع ما يكنه لهما منه ، وأنهما يؤثران أمهما عليه بلا حدود . وشهد بكل وجدانه مآسى وطنه ، ومآسى أسرته ، وشهد أيضا وثبة أكتوبر ١٩٧٣ ، وفى العالم التالى شعر بضعف ، شخص أولا



بأنه فقر دم ، ثم عرفت زوجته من نتيجة التحاليل أنه سرطان دم ، وأن النهاية واقفة أمام الباب . ولم يدر ما أصابه ، ونقل إلى المستشفى وهو يجهله ، وشهد ساعاته الأخيرة الممزقة بنزع الألم زوجته ووحيدة وصالح ، وفى اللحظات الأخيرة طلب رؤية راضية ولكن تعذر ذلك بطبيعة الحال لأنها من ناحية كانت قد جاوزت المائة ، ومن ناحية أخرى لم تعلم بمرض ابنها ، وظلت على جهلها به حتى وفاتها . وأسلم الرجل الروح بعد عذاب ، وودعته دموع زوجته ووحيدة وصالح . أما شكيرة فلم يخفف الموت من كراهيتها العميقة له .

« حبيبة عمرو عزيز »

إن يكن لميدان بيت القاضى والحوارى التى تصب فيه وأشجار البلخ السامقة أثر فى قلوب آل عمرو وآل سرور . إن يكن للمآذن والدراويش والفتوات والأفراح والمآتم أثر ، إن يكن للحكايات والأساطير والعفاريت أثر ، فهى حياة تجرى مع الدم وتكمن فى جذور البسمات والدموع والأحلام فى قلب حبيبة — الخامسة فى ذرية عمرو أفندى — لم تطق مغادرة الحى على ممنوح الفرص الباهرة ، ولم يحب الأب أو الأم أحد كحبها لهما ، ولا الإخوة ولا الأخوات ولا أبناء العم ولا بناته ، حتى الجيران والقطط . بكت كل راحل وراحلة حتى عرفت بالنائحة ، وحفظت الذكريات والعهود ، وثملت دائما بالماضى وأيامه الحلوة . كادت فى الجمال أن تماثل سميرة لولا سحابة تعلو عينها اليسرى . ووقف حظها من التعليم عند محو الأمية ، وسرعان ما استردت أميتها لإهمالها . ولم تعرف من الدين إلا دين أمها الشعبى ولكنها اقتنعت بأن عشق الحسين هو خير

وسيلة إلى الآخرة . وفى سن السادسة عشرة خطبها مدرس لغة عربية يدعى الشيخ عارف المنياوى من زملاء أخيها عامر وزفت إليه فى الدرب الأحمر ، وبعد عام من حياة سعيدة أنجبت له « نادر » ، وبعد عام ثان سقط الرجل فى قبضة السرطان ومضى قبل الأوان . وهتفت راضية من قلب مكلوم :

ـــ ما أسوأ حظك يا ابنتى .

وعاشت حبيبة مع حماتها على دخل دكانين بالمغربلين ، مكرسة حياتها لوليدها ، أرملة دون العشرين من عمرها . وأحبت نادر حب الأمومة المعتاد بالإضافة إلى حب قلب كأنما تخصص فى الحب . ولما أنهى نادر مرحلة الكتاب فى أوائل الثلاثينات أراد محمود بك عطا أن يزوجها من عمدة بنى سويف . وقد رحبت الأسرة بذلك ، وكان عليها أن تسلم نادر إلى عمه ، ولكنها رفضت بقوة ، أبت أن تسلم ابنها كما كرهت أن تغادر الحى . وقال لها حامد أخوها :

ـــ أنت مجنونة ولا تدرين ماذا تفعلين !

فقالت :

ـــ بل أدرى ما أفعل تماما ..

وحاول عمرو وحاولت راضية ولكنها لم تعدل عن قرارها . وتخرج نادر فى مدرسة التجارة العليا فى أثناء الحرب العظمى الثانية . وتعين فى مصلحة الضرائب ، ولكنه عرف من أول يوم بطموحه الذى لا حد له ، وراح يدرس اللغة الإنجليزية فى أحد المعاهد الخاصة ، وأشفقت أمه عليه من انهماكه فى العمل ما بين المصلحة والمعهد . وتسأله :

ـــ لماذا تكلف نفسك هذا التعب كله ..؟

ولكنه كان راسما هدفا ولم تكن قوة هناك لتحيد به عنه . أما حبيبة فقد توجت الكهولة حياتها الجافة فبليت وتبدت كالعليل . وراقبت صعود ابنها بسعادة ، ولم يكن يضن عليها بمال ، ولكنها أبت أن تهجر الدرب الأحمر إلى مغانيه الجديدة . ولما تركها إلى بيت الزوجية غاصت فى غربة مخيفة لم تفلت من قبضتها حتى الموت . وقالت لها راضية :

ـــ نحن نربيهم لهذا وعليك أن تفرحى وتحمدى الله ..

فقالت بانكسار :

ـــ شد ما ضحيت من أجله !

فقالت راضية :

ـــ هكذا كل أم . وعليك أن تزورى سيدى يحيى بن عقب ..

وكانت حبيبة آخر من مات من آل عمرو ، فبكت الجميع بحرارتها المعروفة حتى صفت عينيها ، ولما ماتت لم تجد من يبكى عليها ..

« حسن محمود المراكيبى »

نشأ فى أحضان النعيم ما بين السراى الكبرى بميدان خيرت وسراى العزبة ببنى سويف . وكأنما جىء بنازلى هانم إلى آل المراكيبى لتحسين النسل ، فتجلى أثرها الطيب فى الذكور ، ومنهم حسن الذى عرف بطول قامته ووسامته ومتانة عوده . وبفضل تقاليد تلك الأيام وسماحة القاهرة على عهدها لم يكن يمر أسبوع دون تزاور بين ميدان خيرت وميدان بيت القاضى . وأراد محمود بك أن يوجه بكريه لدراسة الزراعة لينتفع به فى حينه ، ولكن إقباله على الدراسة كان فاترا كقريبه حامد ، فأدخلهما

الرجل مدرسة الشرطة معا . وغمرته ثورة ١٩١٩ بعواطفها القوية وإن لم يتعرض بسببها للأذى كما حصل لحامد . وسرعان ما شارك أسرته موقفها من زعيم الثورة وولائها للملك . وكان ذلك أوفق لعمله فى الداخلية فلم ينقسم كحامد بين باطن وفدى وظاهر حكومى . وبفضل نفوذ أبيه لم يعرف عناء العمل فى الأقاليم ، ولم يستجب لرغبة أبيه فى الزواج المبكر ، ولكنه مارس حياة إباحية مستغلا سحر زيه الرسمى الملون وما توفر له من نقود مرتبه والنفحات التى كانت تكرمه بها أمه . ولكنه أذعن أخيرا فتزوج من عروس تدعى زبيدة من أسرة أمه . فزفت إليه فى شقة بجاردن سيتى ، وعاش فى مستوى يحسده عليه وكيل الداخلية نفسه . واشتهر فى عهود الانقلابات السياسية بالعنف فى تفريق المظاهرات . وتلقى حملات متابعات فى الصحف الوفدية ، بقدر ما أساءت إلى سمعته لدى الجماهير فإنها زكته خير تزكية عند السراى والإنجليز ، وأتاحت له ترقيات استثنائية . وقال عمرو أفندى لحامد ابنه :

— دخلنا المدرسة فى عام واحد وها هو يرقى إلى رتبة اليوزباشى على حين أنك مازلت ملازما ثانيا ..

وكان سرور أفندى حاضرا على نفس مائدة الغداء فقال بلسانه الحاد :

— خائن وابن مراكيبى !

ولكن حامد وحسن كانا صديقين بالإضافة إلى قرابتهما ، وتوثقت العلاقة أكثر بعد زواج حامد من شكيرة ، وقد تعرض حسن للموت فى عهد صدقى فأصابت طوبة رأسه وأخرى عنقه ، وقضى فى المستشفى شهرا كاملا . وكان أعنف إخوته على آل عمه أحمد عندما فرق الخلاف بين الأخوين . بل قد تصادم مع ابن عمه عدنان واعتدى عليه بالضرب فى

السراى فكان يوما مأساويا فى تاريخ الأسرة . وأنجب حسن ثلاثة من الذكور محمود وشريف وعمر ، وضرب بهم المثل فى الجمال والذكاء . ولما قامت ثورة يوليو كان لواء . وكان ثريا جدا بما ورثه وما ورثته زوجته ، ولكن الثورة أحالته على المعاش فى حركة تطهير الشرطة فخرج مع حامد فى قائمة واحدة ، وكانت علاقته به قد انقطعت بعد طلاق شكيرة . وقال لزبيدة :

— علينا أن نبيع الأرض فقد انقلب الدهر على ملاك الأراضى .

والضرر الذى لحقه بيد الثورة لا يقاس بما دهم غيره من طبقته ، منهم ابن عمه عدنان ، ولكنه وجد نفسه ، فى المعسكر المضاد ، ومارس عواطفه كلها نحو الثورة الصاعدة . ومضى يبيع أرضه وأرض زبيدة على دفعات وأنشأ بماله متجرا فى شارع شريف راح يديره بنفسه فازدادت ثروته ، أما أبناؤه محمود وشريف وعمر فقد تربوا فى مدارس الثورة وتشبعوا بفلسفتها وثملوا ببطولة زعيمها ، ولم يأسف حسن على ذلك ، بل وجد فيهم وفى أخويه عبده ونادر حماية له من أعاصير تلك الأيام ، ولعل أخويه كانا وراء الأسباب الخفية التى جنبت متجره التأميم عام ١٩٦١ . ولما وقعت كارثة ٥ يونية كان محمود وشريف وعمر قد تخرجوا أطباء وعملوا فى مستشفيات الحكومة ، وأدركتهم النكسة التى زلزلت الجيل الناصرى فأذرته مع رياح الضياع واليأس . ولذلك ما كاد الزعيم يرحل ويحل محله السادات حتى هاجر محمود وشريف إلى الولايات المتحدة ليبدآ حياة علمية جديدة ناجحة ، أما عمر فقد فاز بعقد عمل فى السعودية . ووجد حسن فى السادات وسياسة الانفتاح بغيته وعزاءه عن كافة هزائمه الماضية فشمر للعمل والثراء الخيالى ، وشيد له ولزوجته قصرا

فى مدينة المهندسين وعاش عيشة الملوك وهو يحلم بعودة أولاده ذات يوم ليرثوا ما جمع لهم من ملايين . وانتهت حياته فى الثمانينات فى حادث عارض ، إذ كان يسوق سيارته المرسيدس فى شارع الهرم فانقلبت به واحترقت ، واستخرجوا جثته منها متفحمة متخلية عن الدنيا وملايينها ..

« حسنى حازم سرور »

هو بكرى حازم وسميحة . وكان ذا جسم رياضى ووجه مليح وذكاء وقاد . وقد نشأ فى النعيم فى فيللا الدقى ، وتخرج مهندسا عام ١٩٧٦ ، ولم يجد — كأخيه — فى حياته مشكلة ما ، ولا عرف هموم الانتماء ، ومثل أبيه جرى فى طريق النجاح والثراء فى مكتب أبيه . وأرادت سميحة أن تسيطر عليه كما سيطرت على أبيه ولكنها وجدته مستعصيا على السيطرة ، ويثور مثلها لأتفه الأسباب ، ولمست فيه المرأة جموحا خطرا فنزعت تخطط لزواجه ولكنه قال لها بوضوح :

— لا شأن لك بهذا ..

فقالت بحدة :

— ولكنك طفل ..

فضحك عاليا وهو ينظر نحو أبيه الذى زاغ من عينيه وقال :

— أنا المالك الوحيد لحياتى ..

— ولكنك لا تدرى شيئا عن الزوجة الصالحة ..

فسألها بسخرية :

— وما الزوجة الصالحة ؟

فقالت بصوت مرتفع :

— الأصل والمال وهما مترادفان !

فقال مواصلا سخريته :

— شكرا لا حاجة بى إلى خاطبة !

وكان قد عشق راقصة بأحد ملاهى الهرم تدعى عجيبة ، تجاوز عشقه لها النزوة العابرة ، حتى اقترح عليها فكرة الزواج .. وقالت له :

— لولا الحب ما قبلت قيد الزواج ..

وسعد بذلك كل السعادة ، غير أنها اشترطت عليه ألا يطالبها بهجر حياتها الفنية ، فتفكر مغتما ثم قال :

— إذن لنبق كما نحن ..

فقالت غاضبة :

— بل يذهب كل منا إلى حال سبيله .

فقبل مرغما وعقد زواجه عليها . وكان أخوه أدهم أول من علم . وكان أبوه الثانى . ولما حمل الخبر إلى سميحة ثارت ثورة وجم لها الخدم وتساءل الجيران . أما حسنى فانتقل إلى شقة تملكها زوجته بشارع الهرم . وهناك قالت له :

— لم أهجر حياتى الفنية لأن السينما بدأت تعترف بأهميتى ..

ولكن الظاهر أن طريق ذلك الاعتراف لم يكن ممهدا ، وأن الأمر احتاج إلى أن ينشئ حسنى شركة إنتاج سينمائى من أجل عبقرية زوجته . وشعر بأن أباه لا يوليه الثقة التى كان يحظى بها فطالب بنصيبه من رأس المال على أن يتفرغ لعمله الجديد . وحقق له أبوه رغبته وهو يقول له :

— ليكن ذلك سرا بيننا ..

بذلك انفصل حسنى تماما عن أمه بل عن أسرته .. وأنتج لعجيبة فيلمين لم يستطيعا أن يخلقا منها شيئا يذكر . وترامت إليه أنباء عن علاقة مريبة بينها وبين ممثل أدوار ثانوية يدعى رشاد الجميل ، فرصد لهما العيون حتى ضبطهما فى شقة مفروشة بالعجوزة . واعتدى عليها بالضرب حتى قتلها ، وحوكم . وقضى عليه بخمسة عشر عاما . وعرف أقرباؤه خبره مما نشرته الصحف وما كانوا قد سمعوا به من قبل . وأكثر من شخص منهم هتف :

— يا ألطاف الله ، إنه ابن حازم بن سرور أفندى رحمه الله .

« حكيم حسين قابيل »

الناظر فى عينيه الواسعتين العسليتين يبهره حسن تكوينهما وقوة إشعاعهما ، ورأسه الكبير غزير الشعر يضفى عليه مهابة . وهو الثالث فى ترتيب ذرية سميرة بنت عمرو أفندى وزوجها حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلى . وكان شارع ابن خلدون مدرج طفولته وصباه حيث تقيم الأسرة عمارة به ، كما كانت حديقة الظاهر بيبرس ملعبه . وعلى ذكائه وتفوقه ولع منذ الصغر بالمقامرة . مارسها أولا فى الدومينو والطاولة وأخيرا فى البوكر والكنكان .

كما عرف بصداقته الحميمة لجار من جيرانه تلازما فى المرحلتين الابتدائية والثانوية . ثم اتجه حكيم إلى مدرسة التجارة على حين التحق الآخر بالكلية الحربية . وقد عرف حكيم أهل أمه جميعا ، عمرو وسرور

والمراكيبى وداود كما عرف أهل أبيه ، وأدهش خاليه عامر وحامد بآرائه السياسية الرافضة أو شبه الرافضة للوضع كله . قال له حامد :

— إنى أعتبر المعاهدة إنجازا مشرفا للوفد !

فقال حكيم :

— لا حصر لسلبياتها ، ثم إنى لا أومن بالأحزاب ..

— الإخوان تجار دين ومصر الفتاة عملاء فاشيست !

— ولا هؤلاء جميعا !

— إذن بماذا تؤمن ؟

— لا شىء ..

وضحك عامر ضحكة خفيفة فقال حامد :

— هذه نغمة نشاز فى أسرتنا ..

وتخرج حكيم فى إبان الحرب العظمى الثانية ، بعد وفاة والده بقليل ، وتعين فى مصلحة الضرائب ، وما لبث أن أحب زميلة له تدعى سنية كرم فتزوج منها وأقاما فى شقة بالعباسية الغربية ، وأنجب منها حسين وعمرو ، ووعدت الحياة بخط روتينى معروف الأول والآخر . ولكن قامت ثورة يوليو وإذا بصديق عمره نجم من نجومها ، وبذلك تفتق المستقبل عن أبعاد جديدة لم تجر لأحد فى خاطر . وفى الوقت المناسب اختير حكيم فى وظيفة إشرافية فى إدارة التوزيع بإحدى الصحف الكبرى ، ووثب مرتبه بجرة قلم من العشرات إلى المئات . ودوى مقامه فى شجرة الأسرة من أسفلها إلى أعلاها . تأهت به أسرة سميرة ، وسعد به آل عمرو رغم وفديتهم المهيضة ، أما المعارضون من آل المراكيبى وداود فقد قالوا ساخرين :

— ذهب فساد متواضع وجاء فساد شره ..

ولصلته بصديقه الحميم هابه حتى الوزراء وداهنه الأعداء والأصدقاء . وسرعان ما انتقل إلى شقة جديدة بالعباسية الشرقية واقتنى سيارة وأصبح حقيقة من رجال العهد . وكان وفيا لأسرته ولأصدقائه ، فمد يد المعاونة لخاله حامد ولابن خالته نادر ، وبفضله عومل أخوه الأصغر سليم معاملة لم تخل من إنسانية عند التحقيق معه قبل سجنه ، كما كان الوساطة الناجعة وراء تعيين كثيرين من أصدقائه حراسا عقب فرض الحراسة على من فرضت عليهم من الأسر . وظلت علاقته بصديقه الحميم كما كانت رغم استوائه قائدا بين القادة الجدد ، فلا يمر أسبوع دون لقاء عائلي فى قصر القائد يتبادلان فيه نجوى الحب والذكريات . وفى إحدى هذه المرات سأله بلا كلفة :

ـــ أما آن الأوان لترشحنى وزيرا ؟

فقال الرجل :

ـــ وما قيمة الوزير ؟ سينقص دخلك إلى النصف ..

ـــ ولو ..

فقال الآخر ضاحكا :

ـــ أصارحك بأنى فعلت ..

ورمقه بنظرة باسمة ذات معنى ، فقال حكيم :

ـــ أعدك بأن أقلع عن القمار ..

فقال واجما :

ـــ ومسألة أخيك سليم أيضا !

وعدل عن التفكير فى الوزارة ولكن نجمه استمر فى الصعود فانتخب عضوا فى مجلس الأمة ، ومازال نوره يتألق حتى ٥ يونية فابتلعت

الظلمات صديقه فيمن ابتلعت ، وتلاشى نفوذه بضربة واحدة وإن بقيت له وظيفته . جاء السقوط هزيمة شخصية فوق الهزيمة العامة ومضغ مرارة الهوان بعد حلاوة العزة . وشق عليه تنكر الكثيرين له حتى الذين انتشلهم من التفاهة بوفائه . ولم يبق له من عزاء فى الدنيا إلا فى ابنيه حسين وعمرو اللذين صارا ضابطين فى سلاح الفرسان . وفى تلك الآونة تجلت به أعراض ضغط الدم الخبيث وقاسى منها ما قاسى ، ثم دهمته داهية كثيرا ما ناوشته فى أحلام يقظته السوداء ، عندما بلغ باستشهاد عمرو فى حرب الاستنزاف وكان ـــ بخلاف سنية ـــ يحب ضبط النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر ، تاركا أحزانه تنعقد فى أعماقه كالعكارة فى جوف الوعاء . وواصل وجوده حتى رحل زعيم وخلفه آخر ، وعاصر ٦ أكتوبر فهزته نشوة لم يشعر بمثلها منذ الأيام السعيدة قبل ٥ يونية ، ولكن سرعان ما خمدت شعلتها عندما تلقى نبأ استشهاد ابنه الباقى حسين فى الميدان . وانفجر الضغط صاعدا بلا ضابط فوق ضبط النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر فقتله ، وتحدث تلك الأمور وراضية تهيم فى ذروة شيخوختها . وتضاحك الملائكة فى البيت القديم !

« حليم عبد العظيم داود »

ولد ونشأ فى ڤيلا أنيقة بالعباسية الشرقية ، وهو الابن الثالث لعبد العظيم باشا داود . مقبول الوجه رياضى الجسم مدمن منذ صغره للهو واللعب والمزاح والعربدة ، لا تصدر عنه كلمة جد واحدة . أخواه اللذان سبقاه كانا غاية فى الجد والاجتهاد ، لذلك قال :

— خلقت لأحدث التوازن الضرورى فى الأسرة .

ويتابع عبد العظيم باشا عثراته المدرسية بمرارة ويقول له :

— ستكون عارا على نفسك وأسرتك .

ولكنه لم يكن يكترث لملامة ، ولم يحتفظ من سجايا أسرته إلا بالكبرياء والغرور والنظرة إلى الآخرين من عل ، حتى أهله كمال وعمرو وسرور أضمر لهم الازدراء وحنق على المتفوقين منهم ، ولم يسلم من لسانه إلا عامر الذى تزوج من شقيقته عفت ، أما آل المراكيبى فكان يضعهم — رغم ثرائهم — فى الدرجة التى كرستها لهم أسرة داود باعتبارهم أشباه أميين ومن صلب رجل كان يبيع المراكيب . ولم يكن يتورع عن إغواء قريباته الجميلات اللاتى يقاربن سنه مثل جميلة وبهيجة ابنتى سرور أفندى أو دنانير بنت رشوانة .. لولا ثقل التقاليد ويقظة الأمهات . ولعل حامد كان الوحيد الذى يعمل له ألف حساب لقوته واستعداده الفطرى للعنف ، فحقد عليه ، ولم يصف ما بينهما إلا حين جمع بينهما سوء المصير فى أواخر العمر وفى صباه ومراهقته — وبتدليل أمه له — أتقن السباحة والكرة والقمار والخمر والعشق والمزاح ، وامتاز أيضا

بصوت عذب فكان يقول بغروره المعهود .

— لولا تقاليد الأسرة لكنت مطرب العصر .

وبعد صراع طويل مع المدرسة قرر الالتحاق بمدرسة الشرطة . واستاءت الأسرة رجالا ونساء وقال له أبوه

— نحن أسرة قانون وطب ..

فاعترف له قائلا :

— لا صبر لى على المذاكرة .

ولما التحق بالمدرسة وجد حسن محمود عطا المراكيبى بالسنة النهائية وحامد بالمرحلة الوسطى ، فكان عليه أن يؤدى لهما فى نطاق التقاليد المدرسية فروض الذل والطاعة ، وكان أهون على نفسه أن يؤدى ذلك لأى جندى .. ومرة تناول الثلاثة الغداء عند راضية ، وهناك تحرر من واجباته والتزاماته ، وخاضوا ثلاثتهم حديث الأصل ، فى مفاخرة ساخرة ، فذكرهما بأصلهما وعيروه بأصله . قال له حامد :

— أنتم باشوات حقا ولكنكم من طين الأرض خرجتم ..

وتابعت راضية حديثهم باسمة ثم قالت :

— الكل فى النهاية من صلب آدم وحواء ، وليس فى الأسرة كلها من بطل إلا أبى الشيخ معاوية ..

وكان حليم يعتبر راضية من عجائب هذه الدنيا بدروشتها وسحرها وأورادها وعفاريتها ، ويقول لأمه :

— لولا الحظ لاتخذت مكانها الطبيعى بين مجذوبات الباب الأخضر .

وتهتف به أمه :

— إياك أن تمس بسوء أحب الناس إلىّ ..

كانت تؤمن بها ، وعند كل لقاء تدعوها لقراءة فنجانها ، وعندما حدست قرب نهايتها فى كبرها أوصت بأن تشهد راضية غسلها دون غيرها من أهلها أو أهل زوجها .

وتخرج حليم ضابطا بعد حامد بعام ، وبفضل أبيه عين فى المراكز الخاصة بالداخلية فقضى أكثر خدمته فى حراسة الأميرات والوزراء . وقد مرت به ثورة ١٩١٩ وكأنها فيلم مثير يشاهده فى إحدى دور العرض لم يعرف طيلة حياته انتماء إلا إلى اللهو والعربدة والمزاح والطرب .. كان أبوه وأخواه من دراويش الأحرار الدستوريين ، أما هو فكان درويش الحانات والملاهى الليلية ونوادى القمار . ولم يفكر أبدا فى تكوين أسرة أو الالتزام بأى قيد . وقد اختار لنفسه شقة فى عمارة بشارع النيل — هى التى دل عليها حامد بعد طلاقه — وزينها بهدايا الأميرات والوزراء ، وشهدت من بنات الليل والفنانات أشكالا وألوانا . ولم يكن يتورع حتى عندما ارتفعت رتبته أن يقضى سهرة فى عوامة مونولوجست ، يسكر ويعربد ويغنى ، ثم يرجع عند الفجر إلى مأواه وهو يترنح . وقد ساءت العلاقة بينه وبين والده ، وبينه وبين أخويه ، وبذلت محاولات عقيمة لتزويجه . ومع الأيام غلبهم بروحه المرحة فغزا قلوبهم وبيوتهم حتى سلموا به كشر لا بد منه ، بل لعله كان أمتع شر فى أسرتهم . ولما قامت ثورة يوليو نقل إلى التفتيش . أجل كان أحسن حظا من حامد وحسن ولكنه عانى العمل الجاد لأول مرة على كبر . إلى هذا فقد أظهر للثورة حنقا من أول يوم ، وتساءل كيف يسرق الحكم أناس لا ميزة لهم إلا استحواذهم على السلاح ؟ وهل يحق قياسا على ذلك أن يتحول قطاع الطرق إلى ملوك ؟. وما هذا الذى يحدث للأسر الكريمة ؟. وكيف تلغى الباشوية بجرة قلم ؟.

وكيف يخاطب بعد اليوم أباه وشقيقه الأكبر ؟. وكيف يؤدى هو سلام التعظيم لضابط يماثله فى الرتبة أو يقل عنه ؟. والأدهى من ذلك كله أنه يوجد من آل المراكيبى ضابطان يعتبران من الصف الثانى من الحكام !. وإن حكيم ابن سميرة يلحق أيضا بهيئة الحكام !. حقا لقد انقلب العالم فصار عاليه أسفله وصار أسفله عاليه ، اضطرمت فى قلبه نيران الغيرة والحنق وتجهم بكل غضب للعالم الجديد الذى تجهمه .

وشد ما فرح بالعدوان الثلاثى فظن أن الستار سيسدل على المهزلة ويستقيم حال الدنيا ، ولكن الحوادث خيبت أمله واستقبل الزعيم حياة جديدة كلها فتوة وبطولة . وفى الستينات توفى أبوه ، وتبعه شقيقه الأكبر بعد عامين فتضاعفت غربته وأساه وأفرط بلا حرص فى لهوه وعربدته . وكان يقضى ليله فى شقة فاخرة تدار للقمار السرى عندما كبسها البوليس . وأظهر شخصيته لرئيس القوة ولكنه تعامى عن ذلك وساقه مع الآخرين إلى قسم شرطة قصر النيل ، ولم تنته المسألة إلى خير فأرسل إليه وزير الداخلية يطالبه بتقديم استقالته تفاديا لما هو أسوأ ، فقدمها على رغمه ، ووجد نفسه على المعاش . وقرر فى ظلمة اليأس أن يقصر خطوطه . وعرض عليه حامد أن يوسط حكيم ليجد له عملا كما نفعه ولكنه رفض شاكرا . فضل أن يعيش فى نطاق معاشه على أن يذل نفسه أمام حكيم ووجد فى المعاش ما يكفى لمعيشته ، واستبدل بالويسكى الحشيش لرخصه النسبى وأثره المناسب ، وتفرغ بكليته للحقد على العهد ورجاله والسخرية منهم فى غرزته الخاصة الحافلة بالحاقدين . ولما وقعت كارثة ٥ يونية قرر أن يحج لبيت الله الحرام . ولم يكن له من الدين إلا الاسم كغالبية أسرته ، ولكنه حج ، ورجع إلى حياته لم يغير منها

شيئا ، وسكنت انفعالاته بعض الشيء ، ولكنه أصيب بالسكر ، ولم يكن يملك من الإرادة ما يواجه به متطلباته من الرجيم فاستفحل معه ، وحصلت له مضاعفات متلاحقة . وذات مساء اتصل تليفونيا بجاره وقريبه حامد وقال له :

— تعالى أنت وعصمت هانم .. إنى أحتضر ..

وفعلا أسلم الروح تلك الليلة بين حامد وزوجه .

حرف الخاء

« خليل صبرى المقلد »

بكرى زينة صغرى بنات سرور أفندى ، ولد ونشأ فى مسكن الأسرة ڤ بين الخناين ، فى مستوى متوسط حسن بفضل ارتفاع مرتب أبيه النسبى يعتبر أفضل من مستوى جده الذى توفى قبل زواج أمه من أبيه ، وكان أشبه الأحفاد بخاله لبيب ، فائق الجمال الموروث عن جدته ست زينب وأمه أيضا زينة التى خصت بجمال لا بأس به وإن يكن دون شقيقتيها جميلة وبهيجة . وكانت زينة تفارق بين وجهه ووجه شقيقته الصغرى أميرة بحسرة ، فقد اقتبست البنت من أمها أنفا أفسد صفحة وجهها الحسن ولبد سماء مستقبلها الأنثوى بالمخاوف ، غير أنها سرعان ما خطفها الموت عقب نزلة معوية حادة . وأبدى خليل نجابة فى حياته المدرسية ، وتشرب بحماس جيل الثورة الناصرية ، غير أنه تلقى تجربة عاطفية استثنائية فى ختام مرحلته الثانوية ، إذ نشأت علاقة بينه وبين جارة أرملة

جاوزت الثلاثين من عمرها تدعى خيرية المهدى كانت تكبره خمسة عشر عاما ..

وذات مساء قالت زينة لزوجها صبرى المقلد :

— خيرية المهدى أغوت ابنك المحترم !

وبهت صبرى أول الأمر . لم يكن متزمتا ، وكان أبا ودودا متفاهما لأقصى درجة ، وقد كان فى شبابه عربيدا حتى انضبط بالزواج بمعجزة . وبقدر ما أزعجه الخبر بقدر ما أثار تيهه ، وراقب الولد حتى تأكد له تردده على بيت الأرملة ، وقالت له زينة :

— إنك لا تتحرك ..

فسألها :

— هل تؤمنين بجدوى النصيحة ؟

فقالت بقلق :

— إنها فى سن أمه ..

— سرعان ما يشبع ويذهب ..

فقالت معترفة :

— من ناحيتى لن أسكت ، فهل تتصور أنهما يفكران فى الزواج ؟

وضحك الرجل غير متمالك نفسه وهتف :

— العبيط !

وراح يتحرى حتى عرف أشياء . وقال لزينة :

— المرأة غنية ..

ولمست منه ترحيبا فاستنجدت بأخيها لبيب ، وكانت حياته العامة والخاصة لا تسمح له بتقبل المزيد من المشكلات ، وفى الوقت نفسه لم

يستطع أن يتجاهل حيرة شقيقته الصغرى، فزار بين الجنايين متفضلا ، وجمع بين الابن ووالديه ، وعرض الموضوع صراحة ، ولم تسفر المناقشة عن نتيجة ترضى زينة ، وقال خليل :

— لن يحول شيء بينى وبين الاستمرار فى الدراسة ..

فقال لبيب حاسما الموضوع ومخاطبا زينة :

— احمدى ربنا ، العروس عمرها كبير ولكن مالها وفير ..

وأرادت زينة أن تؤجل الزواج حتى ينتهى خليل من دراسة الحقوق ولكن العروس كانت أحرص على حظها من ذلك ، ولم يتأخر الزواج إلا ريثما تجدد المرأة بيتها وتؤثثه ، وتزوجت من خليل ، ولما حصل على الليسانس فى عام ١٩٦٥ كان قد أنجب بكريه عثمان وتعين فى قضايا الحكومة ، وقدر كثيرون أن الزواج مقضى عليه بالفشل فى سن معينة ، ولكن حيرية فارقت الحياة فى الخمسين وهى تجرى جراحة فى الكلوة ، ولم تنجب سوى عثمان ، ولم يفكر خليل فى الزواج مرة أخرى .

« حرف الدال »

« داود يزيد المصرى »

هو الابن الأصغر ليزيد المصرى وفرجة الصياد . ولد بعد أخيه عزيز بعام فى بيت بالغورية على مبعدة يسيرة من بوابة المتولى ، وكانت فرجة الصياد ترقب الوقت المناسب لإرسالهما إلى أمها بالسوق ليتدربا على بيع السمك ولكن يزيد قال لها :

— أحب أن يتعلما أولا فى الكتاب ..

فتساءلت محتجة :

— ولم نضيع الوقت بلا ثمرة ؟

فقال الرجل بثقة :

— لولا أنى أفك الخط وأعرف مبادئ الحساب ما ظفرت بعملى فى وكالة الوراق ..

وكانت المرأة تجد فى بيع السمك فوائد لا يحظى بمثلها زوجها فى الوكالة ، ولكنها لم تستطع ثنيه عما عزم . ووجد الرجل تشجيعا من صديقه الشيخ القليوبى المدرس بالأزهر ، بل قال له :

— الكتاب وبعده الأزهر إن شاء الله تعالى ..

ولكن تدين يزيد — كصديقه الثانى عطا المراكيبى الذى كان يقيم فى نفس البيت — كان قانعا بأداء الفرائض المتاحة كالصلاة والصوم لا يتجاوزهما إلى أحلام دينية أعمق ، فرسم لولديه الكتاب كمدخل

للحياة العملية ، وذات يوم والشقيقان يجولان ما بين الغورية والسكة الجديدة رأيا نفرا من رجال الشرطة ، أما عزيز فبإلهام خفى هرب ، وأما داود فقد اعتقله رجال الشرطة وساقوه إلى المجهول . وتحدث الناس بما رأوا ، وعرفوا أن الوالى محمد على يحمل أبناء الناس إلى ما وراء الأسوار ليلقنوا علوما جديدة ، إنه يحبسهم تحت الحراسة حتى لا يفروا من التعليم . وقال عزيز لأبيه :

ـ لولا العناية لسقطت فى أيديهم ..

وشكا يزيد «مصيبته» إلى الشيخ القليوبى فقال له :

ـ لا تحزن ، ابنك فى الحفظ والصون ، وربنا يدفع عنه السوء ..

وبلغ الحزن بالأسرة منتهاه ، ودعت فرجة على الوالى بالهلاك ، وشددوا فى المحافظة على عزيز الذى واصل تعليمه فى الكتاب ، ومضت أعوام فاشتغل عزيز ناظرا لسبيل بين القصرين وتزوج من نعمة المراكيبى ابنة عطا المراكيبى ، وإذا بداود يرجع إلى الغورية وقد أتم تعليمه .. وفرحت الأسرة بعودته فرحة كبرى ، ولكنها لم تدم ، إذ قال داود :

ـ سيرسلوننا فى بعثة إلى فرنسا .

فصاح يزيد :

ـ بلاد الكفار !

ـ لنتعلم الطب .

وصاح عزيز :

ـ لولا عنايتك يا رب لكنت من الذاهبين !

وسافر داود ليخوض تجربة ما كانت تجرى له فى حلم . وفى غيابه توفى يزيد المصرى وفرجة الصياد ، وأنجب عزيز رشوانة وعمرو وسرور ،

ووثب عطا المراكيبى من حضيض الفقر إلى ذروة الثراء ، ثم انتقل من الغورية إلى سراى ميدان خيرت ، ورجع داود طبيبا ، وقصد مسكنه القديم بالغورية الذى انفرد به عزيز وأسرته . جمع الحب مرة أخرى بين الشقيقين ، وجعل عزيز يراقب أخاه باهتمام وتوجس ، سره أن يجده محافظا على صلاته ، شغوفا كالعادة القديمة بزيارة الحسين ، وإن تغير زيه ، وإلى درجة ما لهجته . وبدا له أنه يطوى فى أعماقه النصف الآخر الذى اكتسبه فى بلاد الكفار . سأله :

ـ ألم يحاولوا أن يردوك عن دينك ؟

فأجاب ضاحكا :

ـ كلا البتة ..

وود أن يحدثه أكثر « عنهم » ولكنه آثر السلامة . وسأله أيضا :

ـ هل حقا تشرحون الجثث ؟

فأجاب :

ـ عند الضرورة ومن أجل خير البشر !

فيحمد عزيز الله فى سره على إكرامه له بالهرب فى ذلك اليوم البعيد . وقال لأخيه :

ـ لولا ظروفك لكنت أبا من زمن ..

فقال داود :

ـ هذا هو شغلى الشاغل ..

وكانت توجد أسرة تركية بدرب قرمز .. « آل رأفت » فأشار إليهم قائلا :

ـ لعلهم يرضون لبنتهم بطبيب عائد من فرنسا !

ووجدا فى عطا المراكيبى فى حاله الجديدة الشخص المناسب للكلام فى الموضوع . ولكن داود رفض باعتباره فلاحا حقيرا ولم يشفع له علمه ولا زيه ولا وظيفته .. وتألم الشاب ونظر إلى أخيه مسترشدا فقال عزيز :

— عندنا أسرة الوراق التى كان أبونا يشتغل فى وكالتهم ..

أسرة من أصل مصرى شامى ؛ ووجدوا ضالتهم فى حفيدة الوراق الكبير سنية الوراق ، فرحبوا بالعريس ، وتم الزفاف ، ومضى داود بعروسه إلى بيت جديد بالسيدة ، وقد أنجب منها ولدا — عبد العظيم — وثلاث بنات اختطفهن الموت صغارا . وترقى داود فى عمله حتى حصل على رتبة الباشوية ورسخت مكانته الرسمية والعلمية . وقيض له أن يوفق بين شخصيته المتنافرتين توفيقا ناجحا فكان فى عمله الطبى خير رسول لحضارة جديدة ، له رؤيته المستقبلية الوطنية التى يحفزها شعور أليم بما ينقص وطنه فى مجاله ، وله صداقاته الوطيدة بأقرانه من المصريين والأجانب ، وإلى جانب ذلك توافق مع زوجة — رغم جمالها ودرجتها الاجتماعية وتعليمها الأولى الساذج — لم تكن تختلف اختلافا جوهريا عن أمه فرجة السماك ، ولا عن زوجة أخيه الأكبر نعمة المراكيبى .. بل إنه لم يتحرر من تقاليد الأسرة والبيئة ، فكان يزور بيت الغورية بدافع الحب والواجب معا ، وهناك ينسى شخصيته المكتسبة تماما فيجلس إلى الطبلية ويأكل بشراهة السمك والطعمية وثريد العدس والفسيخ والبصل الأخضر ، ويتابع بعين العطف والمودة النامية بين عبد العظيم من ناحية وبين رشوانة وعمرو وسرور من ناحية أخرى ، ويزور الحسين ويجول فى الباب الأخضر ، ويتعرف إلى أصهار أخيه عطا المراكيبى ثم ابنيه محمود

وأحمد ، وصديقه الشيخ معاوية القليوبى الذى يصير حما لابن أخيه عمرو . فى تلك الأوقات كان يرتد إلى داود الأول ابن يزيد المصرى وفرجة الصياد ، ابن الغورية وروائحها الذكية النافذة ومآذنها السامقة ومشربياتها المسربلة بالتاريخ ، وقد تمنى أن يجعل من ابنه عبد العظيم طبيبا مثله ليعيد سيرته ، ولكن الشاب اتجه إلى دراسة الحقوق ، مدرسة الصفوة والوزراء ، ثم مارس حياة قانونية فخيمة وناجحة . ولما بلغ الدكتور الباشا الخمسين عشق جارية سوداء ، وتزوج منها ، محدثا فى الأسرة دهشة ومثيرا أقوالا وقد اختار لها مسكنا خاصا فى السيدة ، وخصص لها قبرا فى حوش الأسرة الذى شيده يزيد المصرى على كثب من ضريح سيدى نجم الدين عقب حلم رآه . وقد امتد به العمر حتى عصر الاحتلال وعاصر مع أخيه الثورة العرابية ، وأيداها بالقلب ، وتجرعا مرارة سقوطها ، ورحل الشقيقان فى عامين متعاقبين فى أوائل عهد الاحتلال ، ودفنا جنبا إلى جنب فى القبر الذى افتتحه يزيد المصرى ، وسرعان ما حلت بجناحه الحريمى فرجة الصياد ، ونعمة عطا المراكيبى وسنية الوراق ، والجارية آدم فى قبرها الخاص .

« دلال حمادة القناوى »

ولدت ونشأت فى بيت والديها بخان جعفر ، وهى صغرى ذرية صدرية وحمادة القناوى ، ومسكنها على مبعدة يسيرة جدا من بيت جدها عمرة ، وكانت تألف عمرو وراضية كما تألف والديها . ومثل جميع الأحفاد تحب راضية وتسحر بغرائبها ، خاصة وأن الجدة لا تكف أبدا عن نشر ثقافتها الفطرية المسربلة بالخوارق فى جميع الأجيال . وتقول لابنتها صدرية :

— دلال جميلة ولكن كيف تسللت لذريتك القاهرية هذه النبرة الصعيدية؟

فتقول صدرية ساخرة :

— من البغل !

مشيرة إلى زوجها الذى أنفقت حياتها فى ترويضه ، وتضحك راضية قائلة :

— إنه غبى كالحجر ولكنه رجل كريم ..

وكعادته لم يسمح لدلال — كنهاد ووردة — بأكثر من عامين فى الكتاب ثم تولت صدرية تربيتها وتدريبها . وراحت صدرية تستعرض فتيان الأسرة من أبناء أخواتها وأخويها وعمها وآل المراكيبى وداود . ولكن بنات القناوى كن يجيئهن العرسان من قنا وما حولها باسم آل قناوى ، تقدم لها عمدة شاب يدعى زهران المراسينى يملك أرضا مجاورة لأرض أبيها وأعمامه .

وقالت صدرية :

— قضى على بأن يفرق القطار بينى وبين بناتى .

وأجلت مأساة شقيقتها وردة الزواج عاما ، ثم زفت إليه فى القاهرة ، وبعد أسبوع واحد حملها إلى وطنه ، واستقرت دلال بالكرنك بصفة نهائية ، وأنجبت أربع بنات وثلاثة صبيان ، ولم تكن تزور القاهرة إلا فى المناسبات .

« دنانير صادق بركات »

هى الابنة الوحيدة لرشوانة — الشقيقة الكبرى لعمرو وسرور — وصادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش . ولدت فى بين القصرين ببيت يملكه أبوها ، ونشأت فى أحضان نعمة لا بأس بها وتبشر بالمزيد ولم تنجب رشوانة غير وحيدتها لعيب فيها . ولكن لحسن حظ الأسرة أن صادق بركات كان يسبق له الزواج مرتين دون إنجاب ، فعد العيب مشتركا . وترعرعت دنانير بين أم متدينة لحد المشيخة وأب ينتمى لأسرة تعتبر زائدة فى تعليم البنات . وكانت على قدر من الجمال لا بأس به واستعداد للبدانة وكانت تعد من المزايا ، وإلى ذلك فقد أبدت نشاطا يبشر فى المدرسة بكل خير . ونالت الشهادة الابتدائية فألحقت بالثانوية الأمر الذى لفت انتباه خال رشوانة محمود بك عطا المراكيبى فسأل عمرو .

— أأنت راض عن ذلك ؟

فقال عمرو :

— أبوها راض .

وزار الرجل بين القصرين واجتمع بالأسرة ، وقال :

— إنى لم أسمح لشكيرة بتجاوز الابتدائية .

فقال صادق بركات :

— الزمن تقدم يا محمود بك والبكالوريا مناسبة لهذا الزمن ..

وقالت رشوانة :

— إنى واثقة من أخلاق ابنتى ..

وكان محمود بك لا يخلو من دعابة ولو بأسلوبه الفظ فقال :

— ربما قالت أم ريا وسكينة : عنهما يوما ما تقولين .

وغادرهما ساخطا . وفرحت دنانير بقرار أبيها . ستصير بالبكالوريا قريبة من مستوى فهيمة وعفت ابنتى عبد العظيم داود . وسترتفع درجات على جميع بنات خاليها عمرو وسرور ، ولها أن تحلم بعد ذلك بعريس لائق . وكانت رشوانة تستصحبها لزيارة الأصول والفروع فترى الشجرة مثقلة بالثمار ، عامر وحامد ولبيب وحسن وغسان وحليم ، وهى فى نظر نفسها على الأقل لا تقل جمالا عن أجمل بنات الأسرة . ولما قاربت الختام حدث شيء كالمصادفة أقنعها بأن المصادفة مأساة المآسى فى حياة البشر . سقط أبوها فى الدكان مشلولا وحمل إلى البيت ليرقد على فراشه بلا حول حتى النهاية . صفيت التجارة بإشراف عمرو وسرور ومحمود بك وقبض الرجل خمسمائة جنيه هى كل ما بقى له للعلاج وحياة الأسرة . ورأت دنانير أنه لم يعد أمامها إلا مواصلة التعليم والتطلع إلى العمل . لم يكن متاحا لها إلا مدرسة المعلمات وكان على المعلمات وقتذاك أن يمضين حياتهن بلا زواج ما أردن الاحتفاظ بالوظيفة . وتوكدت هذه الخطة عقب وفاة صادق بركات . أجل رأى محمود بك رأيا آخر ، قال :

— لتتزوج دنانير .. وأنا أتكفل بك يا رشوانة ..

ومالت رشوانة للموافقة ، ولكن دنانير — وبدافع من كبريائها — أبت ذلك وأصرت على اختيار مصيرها . لم تكن سعيدة باختيارها ، زهدت فجأة فى حلم الزواج الذى صاحبها منذ الصبا . كانت أتعس أهل الأرض ولكنها اختارت تعاستها بنفسها. وقالت لها رشوانة :

— إنك تضحين بنفسك من أجلى ..

فقالت بثبات :

— بل اخترت ما يسعدنى ..

وأصبحت معلمة وعانسا إلى الأبد ، تعزت عن خيبتها بإتقان العمل والإفراط فى الطعام . وتمضى فى الحياة متسائلة أين كان يختبئ لى هذا الحظ الأسود ؟!. ما أكثر الأعين التى ترمقها بنهم ، من شباب الأسرة والأغراب ، كأنهم يتساءلون ! هذه الفتاة الممنوعة من الزواج ألا تحلم بالحب !. جميع قريباتها مستقرات فى بيوت الزوجية حتى الدميمة المذكرة ، وهى لا تعبرها النظرات دون أثر يبقى ويستفحل . وما تأوى إلى فراشها بعد يوم ملىء بالسخرة إلا وتتأبط معها خيالا ليؤنس وحدتها . إنها دائبة على تعويض لهفاتها وحسراتها بالأخيلة المحمومة الفاجرة والسقوط الوهمى ، والصداقات الحميمة العقيمة مع الزميلات المحرومات فى مجال عملها الرهبانى . مكاتب حياة سرية فى عالم الحلم تتناقض تماما مع حياتها الظاهرة القائمة على عمل جاد استوجب الثناء ، والتزام بالفرائض الدينية استحق الاحترام ، وسلوك رصين أيأس منها الطامعين وحاز تقديرهم ، وفى تلك الفترة الصاعدة من شبابها ونشاطها عرض لها ابن خالها لبيب بشبابه وجماله ووظيفته القضائية اللامعة ، وكان سبيل العزو له ممهدا لولا أنانيته القبيحة . دعاها إلى حديقة الأسماك الهادئة ليعرض عليها علاقة سرية تناسب فى تصوره حالهما . قال :

— أنت ممنوعة من الزواج وأنا مضرب عنه ..

وقالت لنفسها حانقة إنه يريدها خليلة ولا يراها أهلا للزوجية . وقالت بامتعاض وازدراء :

— عرض جدير بامرأة ساقطة !

وتلقى اللطمة ببروده الطبيعى الموروث عند ست زينب أمه ، ورجعت هى إلى بين القصرين مفعمة حنقا على آلها جميعا .. إنهم حقراء ، أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء . يبيعون أنفسهم بلا كرامة . من أجل ذلك تزوج عامر من عفت بنت عبد العظيم ، وتزوج حامد من شكيرة رغم قبحها . وعندما ترنو عين شاب من آل المراكيبى أو آل داود إلى بنت من بنات عمرو أو سرور تقوم القيامة وتثور الكرامة . حقراء حقراء .. آل المراكيبى باعوا أنفسهم للملك ضمانا للمصالح ، وآل داود انضموا للأحرار الدستوريين متوهمين أنهم يتبعون طريق الأسر الكريمة وأصلهم الحقيقى نابع من التراب ، وما كان داود باشا إلا الشقيق الأصغر لعزيز ناظر السبيل !. ما من شاب منهم من سنها أو أكبر إلا وطمع فى عرضها ، ولم يفكر أحدهم فى الزواج منها ، وأطيبهم جميعا مجذوب من مجاذيب الحسين . على أن فترة الشباب الخضراء لم تخل من فرصة عريقة ، أتاحها لها ناظر المدرسة الذى اقترح عليها الاستقالة والزواج منه ، ولكنها بقدر ما سعدت باقتراحه لم تتردد فى رفضه حفاظا على أمها أن تعيش تحت رحمة أحد من هذه الأسرة الحقيرة التى تعبد المال والجاه وتستبيح فى سبيلهما كل جليل . وواصلت حياتها الشاقة القاحلة ، تربى بنات الناس وتعدهن للأزواج ، منقسمة بين سلوك خيالى فاجر ، وواقع متسم بالجدية والتقوى والاحترام . وهامت شجرة الشباب فى ربيع تعلوه كآبة الوحدة وآلام الحرمان وعبث الأخيلة المحرومة ، ثم مضت أوراقها تتساقط ورقة بعد ورقة ، تاركة آثارها فى بدانة تتمادى وقسمات تغلظ ، وعضلات تترهل ، ومرارة تستفحل . وفى أثناء ذلك رحل عمرو وسرور وأحمد

ومحمود ، وتنكرت أشياء كثيرة ، ثم مرضت أمها بداء القلب ولزمت الفراش . وكانت تقول لها :

— لن أغفر لنفسى ما حل بك ..

فتجيبها باسمة متظاهرة بالمرح :

— لقد اخترت ما يناسبنى ..

فتتوسل إليها قائلة :

— تزوجى عند أول فرصة ..

فتكذب قائلة :

— سيحدث ذلك قريبا جدا ..

رغم أنها لم تعد تلفت نظر أحد . واحتضرت رشوانة وهى تقدم لها تفاحة للعشاء . وأدركت دنانير الموقف على عدم خبرتها به فهتفت :

— لا تتركينى وحدى ..

ولفظت المرأة أنفاسها الأخيرة وهى تسندها إلى حضنها . وأجهشت فى البكاء ، وأرسلت الخادم العجوز لإحضار راضية من بيت القاضى . وبرحيل الأم .. عانت وحدة مطلقة فى بين القصرين . وباتت مثالا للبدانة والكآبة . ولما قامت ثورة يوليو وجدت فيها انتقاما أيضا من الجبارين والمنحلين والانتهازيين ، وعاشرتها بارتياح فاتر ، وكان الفتور قد أدرك كل شىء حتى حياتها السرية وعبثها العقيم ، وبفضل الراديو ثم التليفزيون اقتحمت أعاصير الثورة وأحداثها وحدتها ، ونفخت قبسات من الروح فى فتورها ، ولكن ذلك عبرها بسرعة ، حتى أحيلت على المعاش وأوت إلى ظلمة ظلمات الوحدة . ولم يعد لها من عزاء فى هذه الدنيا سوى العبادة وتلاوة القرآن . ومات زعيم وتولى زعيم ، وانفجرت

أحداث جديدة ، ثم جاء الانفتاح ، وبدأت تعانى مع الوحدة والكبر الغلاء المتصاعد . وأخذت تعيد حسابها وتتساءل :

— أكتب علىّ أن أقاسى متاعب المعيشة من جديد ؟!.. وهل حقا يخفى الغد ما هو أسوأ ؟!

« حرف الراء »

« راضية معاوية القليوبى »

بكرية الشيخ معاوية القليوبى وجليلة الطرابيشية . ولدت ونشأت فى البيت القديم بسوق الزلط ، وتبعتها شهيرة وصديقة وبليغ . وكانت صديقة أجمل الأخوات الثلاث أما راضية فأقواهن شخصية وأحدهن ذكاء ، وإلى ذلك فجمالها لا بأس به . كانت طويلة القامة ممشوقة القوام عالية الجبين ذات أنف مستقيم وعينين لوزيتين سوداوين وبشرة قمحية ، وكأنها صورة من أمها . وقد عنى الشيخ بتربية ذريته تربية دينية فكانت الأكثر استجابة رغم أن حصيلتها من الناحية النظرية لم تجاوز معرفة الصلاة والصوم وحفظ بعض السور الصغيرة ولكن قلبها تشرب حب الله وآل البيت ، على ذلك فما تلقته عن أبيها لا يقاس بعشر معشار ما تلقته عن أمها من الغيبيات والخوارق وسير الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعفاريت . والأرواح الساكنة فى القطط والطيور والزواحف ، والأحلام وتأويلها ، وقراءة الطالع ، والطب الشعبى وبركات الأديرة والقديسين والقديسات . ورسخ من إيمانها بأمها ما شهدته من ركون

أبيها نفسه — العالم الأزهرى — إلى وصفاتها الطبية ورقاها وتعاويذها ، واحتفاظه بالحجاب الذى أهدته إليه فوق صدره . وكانت راضية عصبية المزاج ، تمارس الحب والكراهية فى اليوم الواحد عشرات المرات . وقد شهد مدخل البيت — حيث الفرن والبئر وركن المعيشة اليومية — تسلطها على أختيها ، وتحيز الأم لها ، مما أثار ضغينتهما عليها . وما كادت تبلغ الرابعة عشرة حتى خطبها عزيز يزيد المصرى صديق الشيخ معاوية لابنه عمرو أفندى الموظف بنظارة المعارف . وكان الشيخ فى ذلك الوقت معتزلا فى بيته عقب خروجه من السجن الذى قضى عليه به بسبب اشتراكه فى الثورة العرابية ، فتلقى أول فرحة فى حياة لم تعد تبشر بخير فى ظل الاحتلال . ولكن الحظ لم يمهله فتوفى قبل أن يجهز ابنته ، وحمل نيشان العروس إلى بيته فى نفس يوم الوفاة ، الأمر الذى أغرى جليلة بأن تزغرد وتصوت فى لحظتين متعاقبتين وتصير بذلك نادرة فى الحى كله . وخلا زفاف راضية من الأفراح المعهودة ، وانتقلت إلى البيت الذى أعده عمرو لحياته الزوجية بميدان بيت القاضى ، وكان عمرو فى العشرين من عمره ، طويل القامة متوسط القد ، ذا شارب غزير وقسمات واضحة ، واستعداد كامل للحياة الزوجية . وسرعان ما ربط الزوجين حب زوجى متين صمد لتقلبات الحياة وتضارب العادات والأمزجة ، ومع الحب عرفت راضية أول صداقة مع رشوانة أخت زوجها بخلاف نعمة المراكيبى حماتها ، وكأنما حدست ما دار من ورائها عندما ذهبت المرأتان لخطبتها ، إذ قالت نعمة لابنتها رشوانة وهما فى طريق العودة :

— أجمل البنات الصغرى !

فقالت رشوانة :

— العروس مناسبة جدا ، وعلى خيرة الله ..

فقالت نعمة بارتياب :

— أخاف أن تكون أطول من عمرو .

فقالت رشوانة بيقين :

— كلا ، عمرو أطول يا نينة ..

على أى حال حدست راضية بشفافيتها تحفظ نعمة حيالها وتوثبت من أول يوم للدفاع أو الهجوم إن اقتضى الأمر ، ولكن الله سلم دائما فلم يقع بينهما ما يصلح للقيل والقال . وأقبل رجال الأسرة ونساؤها للتعارف والتوادد ، سرور شقيق زوجها ، وعزيز حموها ، والدكتور داود ، وحرمه سنية هانم الوراق وابنهما عبد العظيم ، ومحمود عطا المراكيبى ، ونازلى هانم وأحمد عطا المراكيبى ، وفوزية هانم . اعتقدت أنها ستعرف نساء على شاكلتها أو لعلها تتفوق عليهن كما تفوقت على شقيقتيها ، ولكنها وجدت نفسها حيال هوانم من طبقة عالية . ربما هون من وطأة الفوارق دماثة أخلاقهن وما طبعن عليه من أدب فائق ، ولتقارب العقلية رغم تفاوت المظهر والمنظر . واشتد الإحساس بالفوارق أكثر عندما ردت الزيارات بصحبة عمرو ، فرأت بيت الدكتور بالسيدة ، ثم تاهت فى سراى ميدان خيرت بأبهتها الأسطورية . هناك فقط تنبهت إلى أن جهازها لا شيء . لا شيء ألبتة ، وكم توهمت أن فراشها ذا العمد الأربعة والسلم الخشبى ، ومرآة حجرة الاستقبال ذات الحوافى المرشوقة بالورد الاصطناعى والكنبة الاسطمبولية الطويلة ، كم توهمت أن ذلك الأثاث من التحف المبهرات ، وانكسرت نفسها ، وقالت لأمها بنبرة المعترف :

— سأحدثك عما رأيت ..

وأصغت جليلة إليها صامتة ، ثم تساءلت باستهانة هل يوجد بينهم بطل من أبطال عرابى باشا كالشيخ معاوية ؟

وسرعان ما استردت راضية ثقتها بنفسها ، وراحت تحدث الهوانم عن تراثها من الغيبيات والكرامات . ولكن العلاقة الجديدة تعطرت بماء الورد بفضل أخلاق الهوانم ، ونشأت مودة حقيقية بين الجميع ، وكان لأطوار راضية الغريبة فضل فى ذلك بما تميزت به من أثارة لا تقاوم . واحتدم صراع بين الزوجين على السيادة ، فقد أراد عمرو أن تنطوى زوجة فى البيت . فلا تعبر عتبته إلا بصحبته ، ورأت هى أن علمها الغيبى يطالبها بزيارات دورية لآل البيت وأضرحة الأولياء . وحذرته من أن يقف عثرة فى ذلك السبيل . وكان عمرو من أتباع الطريقة الدمرداشية ويؤمن بأفكار راضية وتراثها ويخشى عواقب التمادى والمغالاة ، فأذن لها بالحركة مستوهبا من ورائها خيرا وبركة ، مطمئنا إلى خلقها ، راضيا بمهارتها الفائقة فى إدارة بيته وتفانيها فى توفير أسباب الفرحة له . وسارت الأمور سيرا حسنا ، وما من نزاع بينهما دام أكثر من ساعات ، فكانت إذا غضب حلمت ، وإذا انفجرت عصبيتها تغاضى وتسامح . وتوطدت مكانتها بين فروع الأسرة الباسقة حتى قبل أن تتوثق بالمصاهرة ، فشاركت سنية الوراق فى الخطبة لعبد العظيم ، كما شاركت نعمة المراكيبى فى الخطبة لسرور أفندى ، وأنجبت مع الأيام صدرية وعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وختمت بقاسم . ولم تكف يوما عن بث رسالتها التراثية فى ذريتها أسوة بفروع الأسرة والجيران ، حتى تبلورت شخصيتها فى الحى كله كسيدة الأسرار الغيبية ، وأضافت إليها الفخر ببطولة أبيها الذى بفضله جعلت من عرابى وثورته أسطورة ذات كرامات وخوارق تداخلت فى

كرامات البدوى وأبى العباس وأبى السعود والشعرانى وامتزجت بعنترة ودياب وإناث الجن وذكورهم والسحر والتمائم والأحجبة والبخور والرقا . ولم تتردد عن مصارحة داود باشا قائلة :

— طبك هذا لا جدوى منه ولا خير فيه .

أو تقول له :

— يوجد طبيب واحد لا شريك له هو الله عز وجل .

وكان الباشا يحب حديثها ويجاريها على قد عقلها ، ويداعبها أحيانا فيقول :

— ولكنك يا ست أم عامر تجعلين مع الله آلهة أخرى من الأولياء والعفاريت ..

فتقول بإيمان :

— أبدا .. إرادته وراء كل شىء .. لولاه ما أمكن سيدى النقشبندى أن يوجد فى مكة وبغداد والقاهرة فى وقت واحد !

وكان يجمعها وعمرو تصورات متقاربة فوجدا دائما الحديث المشترك والتفاهم الدائم . وقد شاهدت ثورة ١٩١٩ من مشربية بيتها العتيق ، وسجلت فى قاموسها الخالد وليا جديدا ، اسمه سعد زغلول .

ولما اشترك عمرو فى إضراب الموظفين تساءلت بقلق :

— هل يسجنونه كما سجنوا الشيخ معاوية ؟.

واخترقت الشوارع المليئة بالفتن وزارت ضريح سيدى يحيى بن عقب ودعت على الإنجليز وملكتهم — كانت تعتقد أن الملكة مازالت على قيد الحياة — بالهلاك الأبدى . وساورها القلق لاشتراك عامر فى المظاهرات ، والعقاب الذى حل بحامد لاتهامه بالتحريض على الإضراب فى مدرسة

البوليس .

وأمام ضريح الحسين هتفت من قلب معذب :

— اللهم نجنا من شر هذه الأيام .. اللهم انصر المظلومين ..

كانت تربى ذريتها بتراثها وإذا بالجميع يتكلمون عن الوطن وسعد ، اتسع مجال الوجدان وأصبحت الحوادث هى المربى الأول . وصمدت راضية وعمرت مثل أمها حتى جاوزت المائة سنة . فى أثناء ذلك تحول الأبناء إلى أسر وشب أحفاد جدد . وسمعت بولى آخر اسمه مصطفى النحاس ، وأخيرا آخر الأولياء الذين عاصرتهم جمال عبد الناصر الذى رفع أحفادا لها حتى السماء وخفض أعزة منهم إلى الحضيض أو السجن ، فراوحت بين الدعاء له والدعاء عليه. وقد انقرضت من أسرتها فى حياتها الأم والأخوات ، وأحمد عطا وعمرو وسرور ومحمود عطا ، وآخرون لم تدر بهم . ولكن قلبها لم يعرف الرعب أكثر مما عرفه فى زمانين .. وفاة عمرو الذى حزنت عليه عمرا كاملا.ومأساة قاسم وخاصة فى أول العهد بها.غير أنها صمدت بقوة خارقة ، وهزمت همومها بحيوية نادرة المثال ، ولم تتقاعد فى بيت إلا وهى تشارف المائة ، وواظبت على الحركة فى مداخله ، ولم تعجز عن الحركة إلا فى عامها الأخير ، ولما حم القضاء طرقها الموت بلطف ودماثة . كانت صدرية متربعة على الفراش عند قدميها ، وإذا بها تسمعها تغنى بصوت ضعيف :

عودى يا ليالى العز عودى

فضحكت صدرية وتساءلت :

— أتغنين يا نينة ؟

فقالت :

— كنت أغنى هذه الأغنية وأنا أرقص بين البئر والفرن .
ومال رأسها الناحية اليسرى لائذا بالصمت الأبدى ..

« رشوانة عزيز يزيد المصرى »

هى بكرية عزيز أفندى ونعمة عطا المراكيبى . ولدت ونشأت فى مسكن الأسرة بالغورية حيث أقام يزيد المصرى بالدور الأول وسكن الثانى عطا المراكيبى جد رشوانة لأمها . ولما ولد عمرو وسرور تبين أن الولدين أجمل من البنت ولكنها كانت مقبولة ذات جسم ممتاز . وألقاها أبوها على أخيها ولكنها دربت خير تدريب على فنون البيت ومالت بطبعها وتأثرها بأمها إلى التدين فعرفت على مدى عمرها بالتقوى والورع . ولما بلغت الخامسة عشرة رغب فى الزواج منها المعلم صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش .. كان من المتعاملين مع عطا المراكيبى ، ومنه عرف عزيز ناظر السبيل وزوج ابنته .. فطلب منه يد بكريته ، وزفت إليه فى بيت يملكه فى بين القصرين على كثب من سبيل أبيها .. وكان صادق بركات قد سبق له الزواج مرتين ولم ينجب ، ومرت أعوام على رشوانة دون حمل ، ثم أنجبت ابنتها الوحيدة دنانير ، فسر الجميع لذلك وخاصة صادق بركات نفسه . وكان مستوى الرجل المالى حسنا ، وأفضل بكثير من عطا المراكيبى وعزيز يزيد المصرى ، فتمتعت رشوانة بحياة طيبة ، مطبخها عامر وعروس برقعها من الذهب الخالص . وتزور والديها فى الغورية أو أخويها عمرو وسرور فى بيت القاضى محملة بالهدايا . واستوت دنانير على مثال أمها مقبولة أو أحسن درجة ، وأثبتت نجابة فى المدرسة

فشجعها أبوها على الاستمرار رغم اعتراض محمود بك عطا المراكيبى . وأيدت رشوانة خطة زوجها لتتساوى ابنتها مع فهيمة وعفت كريمتى عبد العظيم داود ابن عمها ، ولكنها كانت راسمة الزواج كنهاية سعيدة يقف عندها التعليم . ولذلك دربت ابنتها على فنون البيت فى العطلة المدرسية الطويلة وانتظرت على لهف ابن الحلال . ولما لزم صادق بركات الفراش نتيجة لمأساة مرضه سلمت باستمرار دنانير فى التعليم كضرورة لا مفر منها ، على الأقل حتى يتيسر لها الزواج ، واشتدت الحاجة إلى ذلك عقب وفاة صادق بركات ، وبعد أن أصبحت بلا مورد ، ولم تجد بأسا فى أن تتزوج دنانير على أن تعتمد هى فى معاشها على خالها محمود بك لولا إباء دنانير وإصرارها على العمل حتى مع الحرمان من حقها المشروع فى الزواج . وقد مات أبوها عزيز دون أن يترك لها شيئا تركن إليه ، وماتت أمها نعمة فقيرة ، إذ أن ثراء عطا المراكيبى جاءه من زوجته الجديدة التى تزوج منها بعد وفاة زوجه الأولى أم نعمة وكانت تدعى سكينة وهى ابنة صاحب دكان المراكيبى الذى ورثه عطا عنه أو أداره نيابة عن سكينة صاحبته الأصلية ، وقد صفى الدكان بعد وفاة سكينة . كرهت رشوانة فكرة التضحية بدنانير من أجلها هى ، وحاولت إقناعها عبثا بعرض خالها محمود الكريم ، والذى أبدى أخوه أحمد المشاركة فيه حبا وكرامة ، ولكن دنانير أبت ذلك ، وقالت لأمها :

— سنعيش بكرامتنا مهما كلفنا ذلك ..

ولم تخف عنها انتقادها الثابت لخالها ولسائر أسرتها ، قالت :

— إنهم يعبدون المال والجاه ولا كرامة لهم ..

فقالت لها رشوانة بارتياع :

— ما أقساك فى حكمك ، إنهم أناس طيبون ويتقون ربهم ..

فقالت لها برقة :

— أنت طيبة وتحكمين عليهم بطيبتك ، ومن هنا الخطأ ..

وراحت تبث قلقها للجميع .. لأخيها عمرو ، وراضية ، ولنازلى هانم وفوزية هانم ، وفريدة هانم حسام حرم عبد العظيم داود ، فلم يوافق أحد على كبرياء البنت ، وتنبأوا لها بالندم حيث لا ينفع الندم ، أما راضية فتساءلت :

— ومن الكافر الذى حرم الزواج على المعلمات ؟!

وكانت رشوانة تلاحظ ابنتها بقلق ، محاولة النفاذ إلى أعماقها ، متسائلة عن أفكارها وعواطفها وعن المخبأ لها فى زوايا حياتها الغريبة التى تشبه حياة الرجال .

وكلما توترت لها أعصاب أو شكت شأنا من شئون العمل فسرت رشوانة الحال بدواع أخرى مستقرة فى أعماق تلك الحياة الشاذة السقيمة ، وتراها وهى تزداد بدانة وتفقد طلاوة شبابها وجمالها يوما بعد يوم ، وتتطبع بطابع الجدية والخشونة كأنما يحولها العمل وهى لا تدرى إلى رجل . وتخلو إلى أخيها سرور أفندى فى بيته بميدان بيت القاضى وتقول له :

— فيك الخير يا أخى ، لماذا لا تخطب دنانير لابنك لبيب ؟

فيقول سرور متهربا :

— لكنها لا تريد أن تتركك تحت رحمة الغير..

— أستطيع أن أقنعها إذا سعدت بعريس لقطة كابنك .

فقال لها بصراحة :

— الحق إنى لا أرحب بزواج لبيب حتى تتزوج جميلة وبهيجة وزينة ، أنا رجل لا أملك سوى مرتبى الصغير ولا غنى عن مساعدته لتجهيز البنات ..

وترجع بغصة لتجتر همومها التى لا تتخلى عنها إلا أويقات صلاتها . وتنظر فترى الشباب يختفى تماما وتحل محله صورة كئيبة موسومة بالخشونة والجفاف فلا يشك أحد أنه خيال عانس تعكر لها الدهر وتتراكم الهموم برحيل الأحبة واحد فى إثر آخر ، ذهب أحمد وعمرو ومحمود وسرور ، وإذا بقلبها يخونها بالمرض بعد أن خانها بالحزن الدائم . وتستوطن الفراش على كره ، وتسهر ليالى من الألم ، وتشعر بأن الموت يأخذ أهبته .. ويعودها آل المراكيبى وآل داود ويتردد عليها آل عمرو وسرور ، وتوصى كل فرد بدنانير ، وقالت لابنتها وكأنما تلقى إليها بوصيتها الأخيرة :

— تزوجى فى أقرب فرصة !

وساعة الاحتضار وثبت دنانير إلى الفراش ، وأسندتها إلى صدرها ، وراحت تتلو ما تيسر لها من الآيات ، حتى لفظت المرأة أنفاسها ، وأصبحت هى وحيدة بكل معنى الكلمة ..

« حرف الزاى .. »

« زينب عبد الحليم النجار »

ولدت ونشأت فى عطفة الكردى بالحسينية لأب مصرى يدعى عبد الحليم النجار — صاحب دكان نجارة صغيرة بالحسينية — وأم سورية .

وقد تزوجت من سرور أفندى بعد زواج شقيقه الأكبر عمرو بثلاثة أعوام . وكان عزيز يؤمن بالزواج المبكر فلم يلق بالا لاعتراض سرور وقال له :

— الزواج لأمثالك دواء ناجع ..

وقال له أخوه عمرو :

— أنت صاحب مزاج وعلى قد حالك ، والزواج أرخص وسيلة !

واستعانوا بخاطبة فدلتهم على بيت عبد الحليم . وكان الرجل ذا سمعة طيبة وميسور الحال لدرجة لا بأس بها . أجل اعترض عليه بصفة صاحب حرفة ولكن الخاطبة قالت :

— البنت أدب وجمال ..

وذهبت نعمة وراضية للزيارة التقليدية . انبهرا حقا بجمال العروس . وكانت بيضاء فاحمة الشعر ذات عينين خضراوين وجسم لدن ونظرة عميقة الهدوء . وقالت نعمة وهما فى طريق العودة :

— آية فى الجمال ..

فأشعلت غيرة راضية وقالت وكأنما تؤيد وتدافع :

— أما الأصل فكلنا أولاد حواء وآدم !.

وزفت زينب إلى سرور فى بيت مجاور لبيت عمرو بميدان بيت القاضى ، وحال رفع النقاب عن وجهها وقع فى غرامها ، أما هى فقد أحبته حتى آخر عهدها بالحياة . وقد أنجبت له من الذرية : لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم وكان جمالها جواز المرور إلى احتفاء الأسرة وفروعها بها ، ورسخ الأثر بأدبها ودماثتها وهدوء طبعها . أجل شعرت بغريزة ما بغيرة راضية منها ولكن لم ينجم عن ذلك أى مضاعفات بفضل هدوء طبعها المتمادى لحد البرود . طالما احترمتها وجاملتها وقدمتها على نفسها بوصفها حرم الشقيق الأكبر . وطالما أملت أن يكون أبناؤها أزواجا لبناتها ، وكلما اتجه أحدهم إلى قبلة أخرى اتهمت راضية بأنها وراء انحرافه عن قبلته المشروعة وصاحبة الحق الأول فيه . ولكن ذلك لم يفسد الود بين الأسرتين ولا ظهر فيه أثر فوق السطح . متاعبها الحقيقية بدأت مع اقتراب سرور من الكهولة فلم يغب عن إحساسها اليقظ تململه ولا تطلعه التلقائى لكل من هبت ودبت من حسان الحى . وبسبب ذلك قام النزاع بينهما على كبر . من ناحيته دفع عن نفسه التهم بحدة وعصبية ، ومن ناحيتها عاتبت واشتكت بصوتها المهموس ودماثتها الصامدة ، ولما فرغ صبرها شكته إلى أخيه الأكبر عمرو أفندى ، وقال عمرو لأخيه :

— الناس تكبر تعقل ..

فأكد له أن الأوهام لا تريح زوجته ، فقال عمرو :

— أولادك كبروا أيضا ..

وعلمت راضية بالمشكلة فراحت تقول لسلفتها :

— وأين يجد جمالا كجمالك ؟!

ولكنها سرت فى باطنها وقالت لنفسها إن المرأة لا تحيا بجمالها وحده !

ولم تنج من عواقب الحزن فأصابها مرض السكر والضغط وتناوبتها الوعكات وزحف الشحوب على رونقها المتألق ليطفئه رويدا رويدا قبل الأوان . وقرأت دواما أحلام الجشع فى نظرات سرور ، وعاشت فى جو ملبد بسحب المخاوف . وتناوبتها هواجس محضة بأنه لولا الفقر لتزوج مرة أخرى ، وهل يبعد أن يظفر بامرأة غنية تحبه كما جرى حظ عطا المراكيبى قديما ؟! وطالما غبطت راضية على قناعة زوجها وعلو مكانتها فى الأسرة نتيجة لمصاهرتها لآل المراكيبى وآل داود . وتقول لزوجها :

— انظر كيف يحبون أخاك ويغدقون عليه الهدايا ، أما أنت فقد أثرت نفورهم بحدة لسانك !

وجاءت الحرب العظمى الثانية بإظلامها وغاراتها . ولكن أفظع غارة انقضت من القدر على سرور نفسه فأتلفت صحته وسلمته ليد الموت قبل الأوان وهو فى عامه الأخير من الخدمة . ضربة قاضية نزلت بها بغياب الرجل الذى لم يفتر حبها له ساعة واحدة من عمرها رغم فتور رغبته وركود حبه . وعقب عام واحد من وفاته أصابها نزيف فى المخ فراحت فى غيبوبة امتدت ثلاثة أيام ، ثم أسلمت الروح فى صباح اليوم الرابع بين يدى راضية ..

« زينة سرور عزيز »

هى صغرى بنات سرور أفندى والرابعة فى ذريته . اشتهرت بعينين خضراوين واسعتين وجسم سريع النضج يوحى بأنه جسم امرأة لا بنت عذراء . وحجزت فى البيت فى سن مبكرة بعد فك الخط فى الكتاب ، ومضت نحو المراهقة فى محطة انتظار ابن الحلال . وذهبت جميلة إلى بيت الزوجية ، وبقيت هى مع بهيجة فى محطة الانتظار . تفتح شبابها على أسرتها حين دهمها الغروب والتوتر فى جو الإظلام والغارات ، ولحظت من وقت مبكر مناورات القلوب التى تدور بين بهيجة وقاسم ، وفطنت بغريزة متوقدة إلى أن سنهما المتماثل لا يرشحهما للزواج ، وأنه أولى بالفتى أن ينتبه إليها هى . ودأبت ست زينب على اصطحابها — هى وبهيجة — فى زياراتها لبيوت الأسرة . شد ما تلتهمها الأعين ولكن يبدو أن أحدا لا يراهما أهلا للزواج . إنها أسرة تستأهل ما يرددها أبوها عنها وأكثر .. وحل المرض بقاسم فلاذ بعالمه الجديد ، وتلقت أختها الطعنة فى صمت وصبر وتسليم . ورحل أبوها ثم تبعته أمها ، فوجدت نفسها مع أختها وحيدتين ، يلم بهما أخوها لبيب كلما سمح له عمله خارج القاهرة . وقالت لهما راضية :

— الله لا ينسى عباده ومن توكل على الله فلا يحزن .

وذات يوم وكان لبيب يجالسهما فى جلبابه ، قال :

— جاءنى أحدهم يطلب يدك يا زينة .

خفق قلبها ، ونظرت نحو بهيجة نظرة مفعمة بالذنب . فقال لبيب :

ــ لكل إنسان حظه ، وفى وقت لا يتقدم ولا يتأخر .

فقالت بهيجة رغم غرقها فى اليأس :

ــ صدقت تماما يا أخى .. مبارك عليها ..

فقال الرجل :

ــ من ناحيتى لا أستطيع أن أهمل فرصة ..

وساد صمت ثقيل ، ثم قال وكان ذا قدرة على مواجهة أحرج المواقف :

ــ اسمه صبرى المقلد ، موظف بشركة الكيماويات .

فتمتمت زينة بريبة !

ــ شركة !

ــ أفضل من الحكومة .. الدنيا تتغير ..

ثم وهو يهز رأسه الكبير :

ــ سمعت أنه سكير ، وهو نفسه اعترف بذلك ، ولكنه أكد لى أنه تاب وأنه يؤهل نفسه للزواج بجدية .. ما رأيك ؟

قالت باستسلام :

ــ الرأى رأيك .

ــ هذا الكلام لا ينفع اليوم .. سوف ترينه بنفسك ..

وجاء صبرى المقلد فاستقبله لبيب فى حجرة الاستقبال القديمة . وتزينت زينة وارتدت أحسن ما عندها من ملابس ودخلت للقاء حظها . لم تستطع أن تتفرس فى وجهه ، ولكن لمحة كفت لإعطاء صورة عنه . كان نحيلا بدرجة ملحوظة هائل الأنف كبير الشدقين طويل الوجه . ولما ذهب قال لبيب :

ــ لا يعيب الرجل قبحه .. مرتبه محترم .. أسرته طيبة .. والرأى الأخير لك ..

تبين لها أنها تريد زوجا بأى ثمن : لا صبر لها على تلك الحياة الكئيبة وليكن الله مع بهيجة . وزفت إليه فى بيت تملكه أمه ببين الجناين .. وبدت سعيدة بزواجها تماما وأنجبت له خليل وأميرة . وماتت أميرة طفلة مخلفة جرحا غائرا فى قلب الأم الشابة . وكان صبرى يكبرها بعشرين عاما ولكنها نعمت فى كنفه بحياة طيبة ، فرفلت فى أجمل الثياب وتناولت أشهى الأطعمة حتى تمادت فى السمانة وشابهت عوالم الزمان الأول . وقد صدمها زواج ابنها خليل من أرملة فى مثل سنها ، ولكنها عبرت محنتها بسرعة ودون أزمة حقيقية . ولم يكدر صفوها إلا الزمن الذى قطع ما بينها وبين أهلها جميعا حتى تخايلت لعينيها القبيلة القديمة المتداخلة باللقاءات المتواصلة مثل حلم لا ظل له عن الواقع . وقد جاء الزمن بالراديو والتليفزيون وراحت القاهرة تتضخم وتنهمر عليها الأحداث والحروب والعلل . وكأن بين الجناين أصبحت مثل غيرها من الأحياء مملكة مستقلة لا تعبر حدودها إلا فى الملمات ..

« حرف السين »

« سرور عزيز يزيد المصرى »

ولد ونشأ فى بيت الغورية على مرأى من بوابة المتولى ، مع شقيقه الأكبر عمرو وأختهما الكبرى رشوانة . وترامى مراح طفولتهم ما بين البوابة وسبيل بين القصرين حيث يجلس الأب عزيز على عرشه المائى . وكان سرور يشبه أخاه فى طوله ووضوح ملامحه ، ولكن وجهه أنبأ عن تناسق ألطف كما مال جسمه إلى البدانة . وكانت جدته نعمة المراكيبى تخصه بحب لا يحظى بمثله عمرو أو رشوانة ، وتدلله رغم احتجاج عزيز وتحذيراته . ونشأ طبعا مؤمنا ولكن بلا قيود بخلاف أسرته جميعا ، فلم يؤد الصلاة ، ولا الصيام حتى بلغ الخمسين من عمره ، وستنطبع أسرته الخاصة بطابعه فيما بعد ، وبدا كسولا كارها للتعلم فتعثرت خطواته .. أما فى معابثة البنات ومطاوعة الغريزة فقد أنذر سلوكه بالمتاعب . وحاول جر أخيه عمرو معه ولكنه لم يجد منه استجابة تذكر ، ووجد على العكس صدا وملامة . وقد تبادلا حبا أخويا متينا وصمد فى النهاية أمام ما شاب علاقتهما مع الزمن من خلافات . ومضى فى مدرسته الابتدائية بصعوبة ، ولم يكن حظ عمرو أوفر منه ، ولذلك ما كان يحصل على الابتدائية حتى ألقى سلاحه ، وسعد بوظيفة فى السكك الحديدية . كانت الابتدائية شهادة ذات شأن فارتاح بال عزيز وحمد الله . أجل تمنى المزيد لابنيه متأثرا بمثال أخيه داود باشا وابنه عبد العظيم ، ولكنه قال لنفسه « القناعة

كنز » . بل راح يفكر فى الخطوة التالية المهمة وهى الزواج .. ولما حادثه أبوه فى الأمر وجد منه فتورا ، فصارحه بأنه لا يبارك سلوكه وأنه يرى فى الزواج خير علاج له .. وانضم عمرو إلى رأى والده بحماس ، وسرعان ما أذعن سرور احتراما لهما وتطلعا لسحر الزواج أيضا .. ودلتهم الخاطبة على بيت زينب ، وذهبت قافلة من نعمة ورشوانة وراضية لخطبة زينب . وزفت إليه فى البيت المجاور لبيت أخيه بميدان بيت القاضى ، وبهر سرور بجمال زوجته وطبعها الهادئ وخلقها الدمث ، ووجد بين يديها الحب والشفاء ، وأنجبت له فى حياة موفقة لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم ، كان لسرور من وظيفته الرسمية وزوجته الممتازة وذريته الجميلة ما يؤهله لطمأنينة النفس ، ولكنه كان دائما يحوم حول ما يفتقده فخسر كثيرا من الأحلام وأحد الحسد قلبه ولسانه . جمع بينه وبين زينب حال واحدة ، توارت عند زوجة وراء طبعها الهادئ وخلقها الدمث ، وتجلت مع فحولته غير المبالية. عرف ـــ كان لا بد أن يعرف ـــ ماذا كان جده عطا المراكيبى وماذا صار وكيف ابتسم له الحظ ، كما عرف الأصل الذى صدرت عنه باشوية عمه داود ، واحتج على ثراء جده وفقر أمه واتهم جده بالدناءة والقسوة ، ولسعته الغيرة من أخيه المحبوب عمرو لإغداق الجميع عليه بالحب والهدايا وتجاهله هو كأنه ليس بشقيق عمرو ، متغافلا عن حدة لسانه التى نفرت القلوب منه . وضاعف من تأزمه أن عمرو تخطى ابنتيه وزوج ابنيه من آل داود وآل المراكيبى . أجل لم تطف عواطف السخط إلى السطح فيما بين الشقيقين أو الأسرتين وغلب الحب دائما ، ولكن الباطن ماج كثيرا بالانفعالات المتضاربة . حتى ما بين راضية وزينب فقد غطاه السلام دائما وحسن المعاشرة ، وشد ما بكى

سرور يوم وفاة عمرو كما احتضرت زينب تحت مظلة حانية من تلاوة راضية ودموعها . وكما كان سرور دون أخيه فى تقواه كان كذلك فى وطنيته ، ولكن ثورة ١٩١٩ . أودعت قلبه المتمرد قدرا من الدفء لم يتلاش حتى النفس الأخير . وظل يفاخر باشتراكه فى إضراب الموظفين كما لو كان المضرب الوحيد ، وظلت ذكريات مظاهراتها عالقة بخياله كأفتن الطيبات التى عشقها فى حياته . تلك الموجة العاتية الهادرة بأناشيد المجد التى جرفت الآباء والأبناء واقتحمت قلوب النساء وراء المشربيات ، ولذلك وجد فى ارتداد آل المراكيبى وآل داود عن زعامتها المقدسة مجالا يضرب فيه لسانه بغير تحفظ يقول لأخيه :

ــ لنا خال لا يعبد فى الدنيا إلا مصالحه ..

أو يقول :

ــ وبيت عمنا الجليل المنضم لعدلى توهما أنه حقا من العائلات !

ومع الكهولة تفجرت ثورة أخرى فى أعماق سرور تمرد بها على حب زوجته وانطلقت عيناه وغرائزه وراء أحلام المراهقة من جديد . ونشب الشقاق بينه وبين زينب الوديعة المحبة الحزينة . وتعاتبه بصوتها المهموس :

ــ ماذا نصنع لو شكتك جارتنا إلى زوجها ؟

فيقول بحدة :

ــ لا يوجد أصلا موضوع للشكوى .

ولما شكته هى إلى عمرو صب غضبه عليها وهددها بأنه سيتزوج ثانية وقتما يشاء . وكان الزواج مرة أخرى أمنية يعجز عن تحقيقها . والحق أنه لم يخن زوجته إلا مرتين ، واحدة فى بيت من بيوت البغاء ، والأخرى علاقة عابرة لم تدم أكثر من أسبوع . وحنق أكثر على فقره ، وأكثر وأكثر على

جده الفظ ، ودأب على شراء أوراق اليانصيب لعل وعسى ، ولكنه لم يجن من ذلك كله إلا العتاب الصامت يلوح فى أعين بكريه لبيب وبناته ، خاصة عندما تدهورت صحة زينب . ولما رحل عمرو دهمه شعور بالوحدة والكآبة ، وجاءت الحرب والإظلام والغارات فأعلن أن الحياة صفقة خاسرة ، ولم يجد من سلوى فى الحياة إلا فى عظمة ابنه لبيب الذى تاه بها مع الجميع ، الأمر الذى زاده ثقلا على قلوب الأهل . وفى الفترة الأخيرة من حياته انقطع عن زيارة آل المراكيبى وآل داود ، ولكنه كان يزور كثيرا أبناء عمرو وبناته ويشارك فى أفراحهم وأحزانهم ، كذلك بيت أخيه ، وكانوا يحبونه منذ صغرهم وتضاعف حبهم له عقب وفاة أبيهم . وفى العام الأخير من خدمته الحكومية أصابته أزمة قلبية وهو جالس فى المشربية فى ليلة خريف يرنو إلى الظلام الجاثم فوق البيوت والمآذن ، متوقعا بين ساعة وأخرى نذير الغارة المعتاد . وقد فارق الحياة فى أقل من دقيقة واحدة .

« سليم حسين قابيل »

آخر ذرية سميرة عمرو وحسين قابيل . ولد ونشأ فى شارع ابن خلدون ، وتوفى أبوه وسنه عام واحد فترعرع فى حياة منضبطة غير الحياة الرخية التى تقلبت فيها أسرته وهو خاطرة فى عالم الغيب . وكان وسيما كأمه ، فارع العود كأبيه ، كبير الرأس والعقل كأخيه حكيم . ومنذ صغره تجلت صلابته وعناده كما تجلى تفوقه الدراسى . وعدته أخته هنومة بتدينها وصرامتها الأخلاقية . وظن عهدا طويلا أنه يتلقى حقائق الغيب

عن لسان جدته راضية . وكان يحب كرة القدم ويجيدها ، ويحب مخالطة البنات فى حديقة الظاهر بيبرس ، ويكره الإنجليز ، ودائما تداعب خياله أحلام الإصلاح والمدينة الفاضلة . ولم يمل إلى حزب من الأحزاب ، صده عن ذلك أخوه حكيم الذى رفض الجميع بدون استثناء . وسمع حكيم يقول مرة :

ـــ نريد شيئا جديدا .

فقال بتلقائية :

ـــ مثل سيدنا عمر بن الخطاب ..

واتجه بدافع من مزاجه وبتأثير من هنومة إلى الكتب الدينية فى مكتبة أخيه . كان حلم المدينة الفاضلة يغلب عليه الكرة والبنات . ولما قامت ثورة يوليو كان فى المرحلة الثانوية فرحب بها بكل حماس كمنقذ من الضياع ، وشد من ارتباطه بها الدور الذى لعبه شقيقه حكيم فيها . لأول مرة خيل إليه أن المدينة الفاضلة تبنى حجرا بعد حجر . وظن أنه بانضمامه إلى الإخوان إنما يندمج أكثر فى الثورة ، فلما وقع أول تناقض بين الثورة والإخوان أبقاه قلبه مع الإخوان، ومضى يختلف مع شقيقه. وقال له الحكيم:

ـــ الحذر .

فقال :

ـــ الحذر لا ينجى من القدر .

والتحق بالحقوق ونشاطه السياسى ـــ أو الدينى فى تصاعد . ولكن أحدا من أهله لم يتصور أنه سيكون بين المتهمين فى قضية الإخوان الكبرى . وتحير حكيم وقال لأمه الجزعة :

ـــ لا حيلة لمخلوق !

وحكم عليه بعشر سنوات فترنحت سميرة تحت وطأة الضربة ، ووجدت أن تألق نجم حكيم لا يعزيها شيئا عن سجن سليم ، فأضمرت الكراهية للثورة وراحت راضية تدعو على الثورة ورجالها ، وخرج سليم من السجن قبل ٥ يونية بعام فأتم المتبقى له من الدراسة وحصل على الليسانس ، وعمل فى مكتب محام إخوانى كبير . ولما وقعت الهزيمة الكبرى اعتبرها عقابا إلٰهيا على حكم كافر . ولم تنقطع صلاته بالزملاء ولكنها مضت فى تكتم شديد وحذر ، ووجد متنفسا فى الكتابة فوهب لها سنوات من عمره تمخضت عن ثمرة جيدة فى كتاب « العصر الذهبى للإسلام » ثم أتبعه بكتاب أهل العزم والتقوى . وفى الوقت نفسه أحرز نجاحا لا بأس به كمحام ، وتحسنت أحواله المالية من رواج كتابيه خاصة بعد أن ابتاعت السعودية منهما كمية موفورة . ولما رحل زعيم الثورة داخله شىء من الطمأنينة ، فقالت له سميرة :

ـــ آن لك أن تفكر فى الزواج .

فاستجاب لصوتها استجابة ملهوف فقالت :

ـــ عليك أن ترى هدية بنت أمانة بنت خالتك مطرية .

هى صغرى ذرية أمانة وكانت قد رجعت توا من الخليج بعد اشتغالها بالتدريس هناك عامين واشترت شقة فى منشية البكرى . وزار بصحبة سميرة بيت عبد الرحمن أمين وأمانة فى الأزهر ورأى هدية ، مدرسة جميلة فى ريعان الشباب تمت بجمالها إلى جمال جدتها مطرية قمة جمال الأسرة . وخطبتها سميرة وزفت إليه واستقر بها فى شقتها بمنشية البكرى ، وحظى سليم بزوجة طيبة وحياة عملية آخذة فى الازدهار ، وأنس فى حكم السادات مودة ورحمة ، ولم يقلقه إلا التيارات الدينية الجديدة التى انبثقت

من الإخوان ، ثم شقت لنفسها مجارى جديدة محفوفة بالتطرف والغموض . وكان يقول لأخيه حكيم :

— ثمة صحوة إسلامية شاملة لا شك فيها ، ولكنها بعثت فيما بعثت خلافات قديمة تستنفد قواها فيما لا يجدى ..

ولكن حكيم كان يهيم فى واد آخر ، وكان رغم عواطفه الشخصية — يعتبر ما حل بالنظام فى ٥ يونية كارثة محققة ، وأن الوطن يمضى إلى مجهول . ومضت الأيام فتلقى سليم من ربه عهد الأبوة والوفرة فى الرزق ، والرضوان يوم النصر ، ولا شىء من ذلك كله يزحم فى نفسه إيمانه الراسخ وحلمه الأبدى بالمدينة الإلـٰهية الفاضلة ، وجرف تمعه فى تياره العارم هدية حتى قالت :

— كنت ضالة فهديت والحمد لله ..

وأصبح سليم من كتاب الدعوة فى مجلة الإخوان ، ودهمه ما دهم زمرته من غضب لمغامرة السادات الكبرى فى سبيل السلام ، وارتد مرة أخرى إلى عنفوان السخط والتمرد ، حتى صدرت قرارات سبتمبر ١٩٨١ ، ورمى به فى السجن من جديد . ولما وقع حادث المنصة قال :

— عقاب إلـٰهى لحكم كافر ..

وتنفس الحرية فى جو جديد ، ولكنه كان قد فقد الثقة فى كل شىء إلا حلمه . فمن أجله يعمل ومن أجله يعيش ..

« سميرة عمرو عزيز »

هى الرابعة فى ذرية عمرو والثانية فى الجمال بعد مطرية . ومن خلال لعبها فوق السطح وتحت شجرة البلخ فى الميدان ، أو دراستها فى الكتاب تبلورت لها شخصية رزينة وطبع هادئ وذكاء وقاد . نادرا ما التحمت فى « نقار » مع إخوتها ، وعند احتدام العنف كانت تنزوى فى ركن قانعة بمشاهدة ما يجرى مما ستدعى للشهادة عليه فيما بعد . ورغم أنها فاقت أمها بجمالها، إلا أنها كانت تمت إليها فى الهيئة العامة — عدا الطول — الأمر الذى جعل راضية تخصها بإعجاب شديد . وبخلاف أخواتها حفظت المبادئ التى لقنتها فى الكتاب ونمتها بالاجتهاد فكانت الوحيدة بينهن التى تواظب على قراءة الصحف والمجلات فى الكبر .. وفى زياراتها لآل المراكيبى بسراى ميدان خيرت أو آل داود بالعباسية الشرقية كانت تسجل فى وعيها ما تراه من أناقة الترتيب وآداب المائدة وإيقاع الحديث وجمال الموضة وتحاول اكتسابه والتطبع به ما وسعتها الحيلة. وسمحت الظروف . وكان محمود بك عطا يقول بمزاحه الخشن :

— أنتم أسرة بلدى ، ولكن فيكم بنت من بنات الفرنجة !

وأدركتها المراهقة ولكنها لم تعاشر طويلا أحلام العواطف الدفينة ، إذ سرعان ما تقدم لخطبتها صديق لأخيها عامر يدعى حسين قابيل صاحب دكان تحف فى خان الخليلى . زامل أخاها حتى البكالوريا ثم خلف أباه فى الدكان عقب وفاته ، وكان رغم شبابه ذا سمات فحلة وثبت به إلى الرجولة قبل الأوان ، ضخم الجسم ، كبير الرأس ، حاد البصر . وعلى خلق كريم

وثراء لا بأس به ، وبخلاف صدرية ومطرية زفت سميرة إلى زوجها فى حى الظاهر ، بشقة فى عمارة جديدة بشارع ابن خلدون . وجاء ذلك مناسبا لها تماما ، فصادفت كثرة من الأسر اليهودية ، وتعلمت العزف على البيانو ، وربت كلبة لولى كانت تصحبها فى نزهاتها بحديقة الظاهر بيبرس . ولما علم عمرو بذلك قال محتجا ومسلما بالأمر الواقع فى أن .. ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

وكان حسين قابيل ميسور الحال وكريما ، فتفجرت ينابيع الحياة الرغيدة فى مسكنه ، وأشبعت سميرة هواها الكامن إلى الموضة والمعيشة الأنيقة ، وضاعف من سرورها ما طبع عليه زوجها من جميل المعاشرة وأدب المعاملة ، وأمام الآخرين كان يخاطبها بقوله « يا سميرة هانم » وتناديه بقولها « يا حسين بك » وكان الرجل يجمع فى قلبه بين الوطنية الصادقة والتدين العميق ، وينشرهما فيمن حوله ، لذلك نفذت ثورة ١٩١٩ إلى عمق قلب سميرة لم تصل إلى مثله فى قلب أى من أخواتها ، كذلك كان تدينها أسلم من الشوائب إذ كانت أقل أخواتها تأثرا بغيبيات راضية . وقد أنجبت له بدرية وصفاء وحكيم وفاروق وهنومة وسليم ، وجميعهم حظوا بنصيب موفور من الجمال والذكاء ، وتعاون الوالدان على تربيتهم تربية سليمة فى كنف الدين والمبادىء . ومن أول يوم قالت له :

— سنعلم البنات كالصبيان .

فوافق بحماس ، واستطاعت سميرة بتألقها أن تحرك شيئا من الغيرة عند آل المراكيبى وآل داود أنفسهم ، غير أن حياتها لم تخل من أحزان كثيرة ففقدت بدرية وحكيم وأسرته ، وانشق قلبها قلقا على سليم فى شتى

أطوار حياته . ومن العجيب أنها كانت تلقى المصائب بإرادة مؤمنة صابرة قوية ، قادرة على تلقى المصائب وهضمها ، ومعايشة الحزن الباقى بحكمة جعلتها غرضا سهلا للاتهام بالبرود . وتقول لها راضية :

— إنك لا تؤمنين كما يجب بالحجاب والرقا والبخور والأضرحة ، ولا علم إلا علم الأولين ..

وتتساءل سميرة فى نفسها دون أن تبين هل أجدت هذه الوسائل فى دفع المصائب عن صدرية ومطرية ؟!. وحم القضاء فتوفى حسين قابيل بعد مولد سليم بعام واحد وأربعة أعوام خلت على وفاة أبيها . ولم ترث عنه إلا مخزنا من التحف ، دبرت أمورها على عوائد بيعها عند الحاجة ، وقد رحل الأب ، وذريته ماضية فى مراحل التعليم ما بين الثانوية والجامعة ..

وسألتها راضية :

— ماذا تبقى لك يا سميرة ؟

فأجابت :

— مخزن من التحف .

فقالت المرأة :

— بل يبقى لك خالق السماوات والأرض ..

« حرف الشين »

« شاذلى محمد إبراهيم »

الابن الثانى لمطرية ومحمد إبراهيم وقد ولد ونشأ فى بيت والديه بحارة الوطاويط. كان جميلا ولكن دون أخيه أحمد المتوفى درجة ، وحل محل أخيه الراحل فى زمالة خاله قاسم ، ولكنه لم يفز بالمنزلة الأسطورية التى فاز بها أحمد . ومن صغره خالط بيت جده عمرو ، وآل سرور ، والمراكيبى وداود ، وثابر على ذلك فى سائر أطوار حياته ناهجا سبيل أمه فى حب الناس والإكثار من معاشرتهم . ومن صغره أيضا تجلت له مواهب سوف تصحبه فى حياته كخفة روحه وميله للهو وتطلعه للمعرفة وحبه البنات وتوفيقه فى ذلك كله ، رغم أنه لم يحرز فى حياته التعليمية إلا درجة وسطى . ولعله ورث عن أبيه حب الاطلاع ووجد زاده فى الكتب والمجلات التى يقتنيها . وأضاف إلى معارفه من الأهل أصدقاء جددا من قادة الفكر المعاصر ، أيقظوه من سباته وألهبوه بالتساؤلات التى لم ينقطع عنها طيلة عمره . ورغم ثقافته الإنسانية المتنامية وجد استعداده فى دراسة العلوم الرياضية فالتحق بكلية العلوم ، ثم اشتغل مدرسا كأبيه ، واستقر فى القاهرة بوساطة آل المراكيبى وآل داود . وواصل حياته مشغولا بثقافته ولهوه عن المستقبل حتى قال له أبوه :

— إنك مدرس ، ومهنة التدريس ذات تقاليد ، وأرى أن تفكر فى الزواج ..

وقالت مطرية .

— البنات فى أسرتنا كثيرات ، بنات خالاتك ، وبنت عمنا زينة !

وكان قد غازل الكثيرات دون جدية ، ولم يشعر نحو إحداهن بحب حقيقى ، فقال :

— سأتزوج بالأسلوب الذى أقتنع به ..

فقال أبوه محذرا :

— المدرس يجب أن يكون حسن السمعة ..

حسن السمعة ؟!. كان يعبر فترة من الحياة يتساءل فيها عن معنى كل شىء حتى حسن السمعة !. وكان كلما خلا إلى نفسه طرح هذا السؤل : من أنا ؟!. كان ظمؤه إلى تحديد علاقته بالكون جنونيا مضنيا . وكان لا يكف عن مناقشة الجميع ، خاصة من يأنس فيهم ميلا للمناقشة ، كابن خالته حكيم، وغيره من شباب آل المراكيبى وآل داود وآل سرور. وتجرأ بعد ذلك على مقابلة طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل وسلامة موسى والشيخ مصطفى عبد الرازق ــ ولم يكن الدين موضع رفضه ولكنه أراد أن يعتمد على عقله حتى آخر المدى ، وكل يوم كان له شأن . حتى خاله قاسم كان يحاوره ويناجيه . وحتى الثاوون فى مقابرهم من أهله كان يسائلهم فى مواسم القرافة . ولما حمل جده عمرو إلى فراشه وهو يودع الحياة ، جىء بممرضة تدعى سهير لتحقنه ، فأعجب بها شاذلى رغم تسلط الحزن . وراح يساعدها فى تسخين الماء تحت مراقبة خفية من عينى عفت زوجة خاله عامر اللتين ندت عنهما نظرة خبيثة ماكرة. وتوطدت علاقة حب بين الاثنين قبل حلول الأربعين. وتبين له أنه جاد هذه المرة أكثر مما تصور فأعلن رغبته فى الزواج منها. وصارحته مطرية قائلة:

— لك وجه جميل وذوق ردىء !

وكان يرد على العتاب بالضحك . وقالت مطرية :

— أصلها واطى وجمالها مبتذل .

فقال لها :

— استعدى للفرح .

وسلم محمد إبراهيم بالأمر الواقع دون اكتراث ، ولم تفكر مطرية فى إغضاب ابنها أكثر مما قالت ، واختار شاذلى شقة فى عمارة جديدة بشارع أبو خوده واستقبل حياة الحب والزوجية . واستقالت سهير من عملها وتفرغت لحياتها الزوجية ، وأثبتت أنها فتاة لبقة وطيبة وسرعان ما حازت رضا حماتها . وكان شاذلى سيئ الحظ فى ذريته ، توفى له خمسة فى سن الرضاعة ، وعاش محمد وحده ، وصار ضابطا فى الجيش ، ولكنه استشهد فى الاعتداء الثلاثى . وعاش شاذلى حياته منقبًا عن ذاته ، يقرأ ويناقش ويتساءل ثم يصطدم بجدار اللاأدرية فيبدأ الشوط من جديد . ولم يهتم بالسياسة إلا باعتبارها حوادث تدعو للتأمل والمعرفة ، فلم يقع تحت سحر الوفد ، وتابع تقلبات ثورة يوليو كما يتابع فيلما سينمائيا مثيرا ، ولكنه حزن على ضياع محمد حزنا لم يبرأ منه طيلة عمره . وقال مرة لشقيقته أمانة :

— كلانا لم يخلق للسعادة الصافية ..

ووجد شيئا من العزاء فى حب ذريتها ، أما سليم ابن خالته وزوج هدية بنت أخته فكان يخيفه بصرامته وحدته . لم يجد فى حواره متاعا ولا لذة . وقال له سليم :

— حيرتك مستوردة ولا يجوز لمسلم أن يقع فيها .

وظل على وده لقاسم رغم ما طرأ عليه ، وكان يصطحبه أحيانا إلى الكلوب المصرى حيث تنهمر عليهما ذكريات الآباء والأجداد ، وكمعلم راح يراقب الأجيال المتعاقبة بذهول ، وقال مرة يحادث نفسه :

— لا أحد يشغل باله إلا بلقمة العيش والهجرة فما جدوى العذاب ؟!

« شاكر عامر عمرو »

ولد ونشأ فى « بين الجنائن » وهو شارع تقوم على جانبيه بيوت حديثة وتمتد شرقية وغربية الحقول المزروعة بالخضروات وأشجار الحناء . وهو بكرى عامر وعفت وحفيد عمرو أفندى من ناحية وعبد العظيم باشا داود من ناحية أخرى . وكان دخل أبيه من مرتبه ودروسه الخصوصية ، بالإضافة إلى ملكية أمه للبيت الصغير الأنيق ذى الحديقة الخلفية بتكعيبة العنب وشجرة الجوافة وشجيرات القرنفل ، كل أولئك هيأ معيشة حسنة المستوى للأسرة ، كما وفر لشاكر البكرى مظهرا جميلا وتدليلا لا يفتقر للإرشاد القويم . وبالرغم من تفوقه الرياضى شق طريقه فى المدارس بنجاح . ولما لحق به فى الوجود أخواه قدرى وفايد لعبت الغيرة دورها بين الإخوة ، ولم تخل من معارك ، ونزاع مع الوالدين ، ولكنها اعتبرت رغم ذلك أسرة متماسكة يغلب عليها الوفاق . وكان للحب المتبادل بين الزوجين نفحاته الزكية فى إضفاء جو السلام ونشر المحبة ، وبقدر ما تجلى الأب صديقا أبدت الأم محاولاتها فى التسلط . وأحب شاكر جده عمرو وجدته راضية وتظاهر دائما باحترام غيبياتها ، كما أحب

جده عبد العظيم باشا وجدته فريدة هانم حسام . وتلقى عن آل داود احتقارهم التقليدى لآل المراكيبى الذى اشتد بعد أن صارت شكيرة سلفة لعفت أم شاكر . ونشأ شاكر ، وانتماؤه لأسرته وذاته يغلب فيه أى انتماء لوطن أو لحزب من الأحزاب . وورث ذلك عن أمه التى كانت غير منتمية بحكم تربيتها وإن أعلنت فى المناسبات ولاءها للعدليين متابعة لأبيها ، أما الأب فلم يعد له من وفديته القديمة — فى بيت الزوجية — إلا عاطفة باهتة أخفاها فى أعماقه فلم يمتد تأثيرها إلى أولاده ، والتحق شاكر بكلية الطب ، وخاض أول تجربة عاطفية جادة فى حياته بحبه صفاء بنت عمته سميرة . وكانت لهما قصة ترامت أنباؤها إلى عفت أمه فجن جنونها . لم يكن فى صفاء ما يعيب ، فهى جميلة وطالبة فى الآداب ، وقريبته . ولكن عفت ، رغم علاقتها الطيبة بآل عمرو ابن عم أبيها ، إلا أنها كانت تراهم دون مستواهم ، وأن عروس ابنها يجب أن تكون من درجة أعلى بمراحل . وثار غضبها ولم تخفه ، وعلمت به سميرة وآل عمرو ، وأحدث ما أحدث من استياء ، وفى الوقت نفسه لم يبد شاكر مقاومة جدية لأمه . فنصحت سميرة ابنتها صفاء بقطع علاقتها بابن خالها . وغضبت الفتاة لكرامة أسرتها وقطعت العلاقة بعد اقتناع بعدم جدية شاكر ، لم يخرج شاكر من تلك التجربة مهيض الجناح ولكنه لم يخل من حنق على أمه . وقد تخرج طبيبا ، وبفضل خاله الدكتور لطفى باشا عبد العظيم عين فى وظيفة بالمعامل بوزارة الصحة ، ثم أمكنه فتح عيادة خاصة لأمراض الدم بعد بضع سنين . وراحت أمه ترسم خطة لتحقق حلم الزواج الجدير به فى نظرها . وكان هو يتردد على ملاهى الهرم القديمة فأحب راقصة هنغارية ، واكترى لها شقة فى الهرم ، وتحولت العلاقة إلى حب حقيقى

فتزوج منها سرا ، ولم يجرؤ على مكاشفة أمه بالحقيقة ولكنه كاشف بها أباه . وصعقت عفت ، وثارت ثورة علم بها القاصى والدانى وكثر الشامتون . وانتقل الدكتور إلى مأواه الجديد وأنذر الحال بالانفصال الكلى عن أسرته . وقالت راضية لعفت :

— لا يجوز أن تخسرى ابنك والزواج فى النهاية قسمة ونصيب ..

ومع الزمن رجعت العلاقات فى أضيق الحدود . وقامت ثورة يوليو وانقلب المجتمع رأسا على عقب ، وطارت الباشوية من آل داود ، وهبطت قيمة الأطباء والقضاة ، فحقد شاكر على العهد الجديد حقدا أفسد عليه أعصابه . ودبر أمره للهرب ، فانتهز فرصة حضور مؤتمر طبى فى شيكاغو ، وهاجر إلى الولايات المتحدة وأقام بها قاطعا علاقته بوطنه وأهله . وقد رجع فى منتصف الثمانينات مصطحبا زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدته راضية كضيف أجنبى ، ثم سرعان ما رجع إلى وطنه الجديد ..

« شكيرة محمود عطا المراكيبى »

فتحت عينيها على سراى ميدان خيرت برياشها وتحفها وحديقتها الغناء . من سوء حظها أنها اقتبست أهم معالمها من أبيها محمود بك متجاهلة أصل أمها نازلى هانم المترع بالجمال والعذوبة ، ربعة قوية الجسم كبيرة الرأس خشنة القسمات ، عنيدة متطرفة فى أحكامها متعصبة لرأيها لا تتزحزح عن عاطفة ، مع تدين قوى وأخلاق متينة وعادات مهذبة رفيعة . لولا ذلك ما خطب أبوها حامد عمرو لها بنفسه وقاية لها من

الانتهازيين . ورغم الفارق الشاسع بين الأسرتين فلم يتحمس للزواج أحد من آل عمرو سوى عمرو نفسه . وأطلقوا على شكيرة منذ إعلان الخطبة « شكير بك عطا » . وبكل أمانة أحبت شكيرة زوجها الشاب من أول يوم ، وكانت على أتم استعداد لفتح قلبها لآله جميعا . أجل لم يغب عنها ما يحمل فى طياته من ذوق وتقاليد ومعاملة بعيدة بشعبيتها كل البعد عن تربيتها الرفيعة المهذبة ، ولكنها قالت لنفسها :

— كل شىء قابل للتغيير !

ولكنها لاحظت أيضا أن عاطفته كانت نهما عابرا وأن طلائع الفتور لاحت فى شهر العسل نفسه . ودهمها ذلك كصاعقة فآلمها أشد الألم وطعن برأسه السام المسنون حبها وكبرياءها ، ولم تكن تخفى عن أمها شيئا فقالت نازلى هانم :

— هذه أحوال تمر ، كونى لبقة كيسة .

وحدثتها حديث الهوانم المجربات طاوية قلقها فى قلبها . وقالت لها أيضا :

— إنه من بيئة شعبية ، وبحكم عمله كضابط شرطة لا يتعامل إلا مع الساقطين !

وكان حامد يعمل حاسبا لجبروت حميه ولإقامته بين أفراد قبيلته فلم يرتفع له صوت ، ولكنه كان يدس بدواته دسا رفيقا ومؤذيا فى آن . وغضبت مرة فقالت له :

— كثيرون لا يعرفون النعمة إلا بعد زوالها !

فقهقه ساخرا وقال :

— إن زواجك منى هو النعمة حقا لك أنت !

— إذن لماذا رضيت ؟!

— الزواج قسمة ونصيب .

— وطمع وجشع أيضا .

هكذا بدأ عراك لم ينقطع على مدى السنين حتى حسمه الطلاق فيما بعد . وارتفع درجة فى حرارته فصاحت به مرة :

— إنك تنضح بالقذارة ..

فسألها متهكما :

— ألم يحدثوك عن جدك بياع المراكيب ؟!

ولكن شكيرة رغم غضبها وصلابتها لم تخل من حكمة ، فظلت أسرار حياتها الزوجية التعسة خافية فى أضيق الحدود ، حتى نازلى هانم لم تعلم بكل تفاصيلها .. بل يمكن القول بأنها لم تنضب من حب له رغم كل شىء حتى وفاة أبيها ، وأنجبت له وحيدة وصالح ، وأملت كثيرا أن يستقيم حاله مع الزمن ولكن دون جدوى . ولم تكن علاقتها مع أسرته بأحسن من علاقتها معه . كانت تعتبر راضية — قبل زواجها — امرأة غريبة الأطوار ، ثم حكمت بعد ذلك بجنونها ، وتبادلا كراهية ماحقة رغم الصداقة الجميلة بين راضية ونازلى . وقالت نازلى :

— حذار أن تغضبى حماتك ، إنها مؤاخية للجان !

فقالت شكيرة :

— اعتمادى على الله وحده .

كذلك تبادلت كراهية مع عفت زوجة عامر ضاعفت ما بين آل عطا وآل داود من غيرة ومنافرة . ولما رحل جيل الكبار تنفس حامد وتطاير سخطه فى الهواء بلا ضابط ، وانتهى الأمر بالطلاق . وقد كرهت شكيرة

حامد وأهله كراهية عميقة لم تخف حدتها أبدا . وواظبت على لعنه وتشريحه حتى بعد موته . وفى وحدتها استغرقها التدين وحجت أكثر من مرة ، وكانت تحرص على الفرائض من صلاة وصوم وزكاة ، كما تحرص على لعن أعدائها والدعاء عليهم فى الدنيا والآخرة .

« شهيرة معاوية القليوبى »

هى الابنة الثانية للشيخ معاوية وجليلة الطرابيشية . ولدت ونشأت ببيت الأسرة القديم بسوق الزلط بباب الشعرية ، وملعبهن كان مدخل البيت ما بين الفرن والبئر وكنبة المعيشة ، هو الذى جمع بين راضية وشهيرة وصديقة وبليغ . وفيه سمعت وصايا الشيخ الأب ، وجرت كلمات جليلة محملة بغيبيات العصور الخوالى . ومن بادئ الأمر لم تستجب شهيرة للدين وفرائضه ولكنها استقبلت التراث الغيبى بحماس وأضافت إليه من خيالها الكثير ، وكانت تشبه راضية جسما ووجها مع ميل أكثر إلى البياض وتفوق فى العنف وسلاطة اللسان وتماد فى غرابة الأطوار التى تماس حافة الجنون . وعقب وفاة أبيها بعامين خطبها أحد تلاميذه من قراء القرآن الكريم ، ذو صوت عذب ومنظر وجيه ورزق موفور ، فزفت إليه فى مسكنه بباب البحر غير بعيد من بيت الأسرة . وأنجبت منه ولدا جميل الصورة أسماه أبوه عبده تيمنا باسم سى عبده الحامولى الذى كان مولعا بصوته . ومضت حياتها الزوجية فى توفيق رغم حدة طبعها وسلاطة لسانها ، ولكن الشيخ على بلال — الزوج — كان يعلق على ذلك بدعابة قائلا :

— هذه توابل الحياة الزوجية .

وقد توطدت مودته لعمرو أفندى وآله ، وكلما زار بيت ميدان بيت القاضى رجاه عمرو أن يبارك البيت بتلاوة منه فيتربع فى حجرة الاستقبال عقب الغداء واحتساء القهوة ويقرأ ما تيسر من القرآن الكريم بصوته العذب . وأغراه صوته وأصدقاؤه بإنشاد المدائح النبوية فى المواسم ، فاتسع مجال رزقه وكثر المعجبون به حتى دعى لإحياء بعض الأفراح بإنشاد المدائح ، وفى ذلك الجو المعبق بالأفراح ، والليالى الملاح جرت رجله لتدخين الحشيش . وأخيرا اقترح عليه أحد الملحنين أن يتحول إلى مطرب متنبئ له بمستقبل وردى . واستجاب للدعوة بقلب طروب ، ولم يجد بأسا فى هجر السور الشريفة ليغنى « اوع تكلمنى بابا جى ورايا » و« ارخى الستارة اللى فى ريحنا » و« الهف يا لا بف يا سمك مقلى » ونجح فى ذلك نجاحا مرموقا وسجل أسطوانات راجت فى السوق وأذاعت اسمه على الألسنة . وضرب عمرو أفندى كفا بكف وقال :

— يا للخسارة ..

وبدأت شهيرة تخاف على مكانتها الزوجية من إغراءات الوسط الجديد فقالت له :

— تزوجتك شيخا مباركا فانقلبت إلى عالمة !

وثمل الرجل بنجاحه وصار واسطة العقد فى كثير من جلسات الحشيش ، ولم يتورع بعد ذلك عن معاقرة الخمر وتبخير بيته آخر الليل برائحتها الكريهة النفاذة مذكرا شهيرة بمأساة أخيها بليغ ، فغطى صوتها على مؤذن الفجر فى زجره وسلقه بلسانها الحاد . ثم ترامى إليها أنه بدأ يغازل العوالم فانقضت عليه بوحشية فتحت له أبواب الجحيم على

مصاريعها فقر عزمه على تطليقها . ولكنه قبل أن ينفذ عزمه أفرط ليلة فى البلبعة فكبست على قلبه وأسلم الروح فى مجلس أنس وهو يداعب أوتار عوده . وأدت شهيرة طقوس الحزن بلا مشاركة وجدانية ، وأجرت البيت ودكانين أسفله ، وحملت عبده راجعة إلى بيتها القديم لتشارك أمها وحدتها .

وقالت لها راضية :

— ليكن عبده لك قرة عين ..

ولكن عبده اختطف فى حمى كحلم بعد أن عرفت أمه فى الحى بأم عبده ، والتصق بها اللقب حتى آخر عهدها بالحياة . وولعت بتربية القطط ، وكرست حياتها للعناية بها حتى ملأت عليها فراغ حياتها ، وزحمت البيت القديم.. وراحت تؤكد أنها باتت خبيرة بلغتها وبالأرواح التى تسكن أجسادها ، وأنها عن طريقهن تتصل بعالم الغيب . ووجدت فى راضية خير صديقة لها . وكان اجتماعهما سواء فى بيت القاضى أم فى سوق الزلط تمهيدا طبيعيا لعقد جلسة غريبة تتبادل فيها الخبرات عن عوالم الجان والغيب وأبناء الأسرار الخفية ، كانتا فى ذلك قلبا واحدا وعقلا واحدا رغم سوء ظن راضية بها واتهامها لها بحسدها على ذريتها وزواجها الموفق . واشتهرت فى حى سوق الزلط بشخصيتها الغامضة المرهوبة ولسانها السليط . ولم يعرف عنها أنها أدت فريضة ، وكانت تجهر بإفطارها فى رمضان وتقول :

— الواصل ليس فى حاجة إلى فريضة تقربه من الله ..

ولما رحلت أمها غرقت فى وحدتها وانغمست فى دنيا القطط حتى قمة رأسها الأشيب ، وكان أخوها بليغ يتعهدها برعايته ويدعوها لزيارة

قصره المنيف ولكنها كرهت زوجته بلا سبب ، ولم تكن تغادر القطط إلا لزيارة سيدى الشعرانى أو زيارة راضية .. وفى عام ١٩٤٧ أصابها وباء الكوليرا فنقلت إلى مستشفى الحميات بعد أن أوصت جارة بالذهاب إلى راضية للعناية بالقطط . وماتت فى المستشفى مخلفة حوالى أربعين قطة وقطا . وبكى أبناء وبنات راضية.الخالة التى كانت تثير ضحكهم فى حياتها ..

« حرف الصاد »

« صالح حامد عمرو »

نشأ فى سراى ميدان خيرت فى الجناح المخصص لحامد وشكيرة . وهو وأخته وحيدة يمثلان أول جيل للأحفاد فى آل المراكيبى ولذلك حظيا بتكريم خاص من الجدود والأخوال . وكانت الحديقة الكبيرة ملعبه وحلمه ، أحبها فى الربيع وهى تجود بأخلاط روائحها الزكية ، كما أحبها فى الشتاء إذا غسلتها مياه الأمطار النادرة . وارتبط بأمه أكثر من أبيه لانشغال أبيه بعمله ، وارتبط بها أكثر كلما لمس آثار محنتها مع أبيه . وكان قوى الجسم كأبيه حسن الملامح كجده ، ولكن أمه ربته تربية دينية أرستقراطية رفيعة فنشأ ذا ضمير ومبادئ تقوى ، وكان عنيدا كأمه مما أضفى عليه شبهة غباء هو فى الحقيقة أبعد ما يكون عنه . وأكد ذلك تشدده فى الحكم على الناس ، بالقرآن والسنة ، دون تسامح أو لين . وربما كان أبوه أولى ضحاياه رغم حب الرجل الشديد له . هو أيضا كان يحب أباه ولكنه رآه

مبتذلا ووضعة فى خانة واحدة مع الخطاة والساقطين مع إيلائه حقه الكامل من البر والولاء . ولم يغب موقفه عن غريزة حامد ، وشكا أمره إلى أخيه عامر قائلا :

— شكيرة أنشأتهم على النفور منى ..

ومن أجل ذلك قال عامر لصالح مرة :

— أنت رجل صالح يا صالح فلا تنس البر بأبيك .

فقال صالح :

— ما أهملت له حقا أبدا .

— لعله لا يقنع بالرسميات ..

فقال بصراحته الحادة :

— إنه يظلم ماما يا عمى .

وقرب ذلك الخلق بينه وبين سليم ابن عمته ، مع فارق وهو أن سليم كان يقرن العاطفة بالعمل أما صالح فكان يقول لنفسه :

— حسبى القلب وهو أضعف الإيمان ..

لذلك أحب الإخوان دون أن ينخرط فى سلكهم ، وأدان ولاء آله — آل المراكيبى — للملك كما أدان الأحزاب جميعا ، وبمتابعة الصراع الدائم بين والديه نفر نفورا عاما من آل أبيه ، آل عمرو وسرور ، كما احتقر آل داود ، وآمن مع أمه بأن جدته راضية ما هى إلا امرأة مخبولة ! وبنجاحه المتواصل فى المدارس قال له حامد :

— عليك بالطب وأنت أهل لذلك !

ولكن شكيرة قالت :

— بل الزراعة ولك أرضى بعد ذلك تعمل بها .

وطابت له فكرة أمه فلعنهما حامد فى سره . وبعد تخرجه فى الزراعة سافر إلى بنى سويف مصمما على خلق مزرعة حديثة من أرض أمه التى ورثتها بعد وفاة جده الجبار . وخطب إحدى قريبات جدته نازلى هانم وتدعى جلفدان ، وتوفر للعمل فى الأرض بهمة عالية ، كما ربى العجول وأقام منحلا للعسل . وارتدى ملابس أعيان الريف . ولم يكن يرتدى البدلة إلا حين زيارة القاهرة . ولما قامت ثورة يوليو عاداها بقلبه رغم أنها لم تمسه بسوء ، ورغم أنه وجد خاليه عبده وماهر من رجالها . وفى عهد الانفتاح اتسع رزقه وكثرت ذريته وظل على ولائه لمبادئه . وازداد استياء من أبيه بعد تطليقه أمه وزواجه الثانى ، ولكنه لم يخل من حزن صادق لدى وفاته . وتأقلم بالريف وأحبه وعشق عمله ونجاحه وأصبح يطلق على القاهرة « مدينة العذاب » ..

« صدرية عمرو عزيز »

قيل عنها بحق نخلة آل عمرو . كالآخرين ولدت ونشأت فى البيت القديم بميدان بيت القاضى . بلون ضارب لسمرة أعمق ، وقامة أميل للقصر ، وجسم نحيل حسن التكوين ، وقسمات مقبولة ، استقبلت بفرحة يشوبها فتور إذ انعقد الأمل بمولد ولد ولكنها بحكم سنها مارست الأمومة لإخوتها وأخواتها منذ الصبا . وكانت نجية أمها ووريثة تراثها ، ولم تخل أيضا من قدر من الدين الصحيح . أما براعتها فى فنون البيت من طهى وتنظيف وشغل الإبرة فكان مضرب الأمثال ، وتعلمت فى الكتاب أشياء وفكت الخط ولو أنها ردت إلى الأمية لعدم الاستعمال . ولم تكن

تكف عن العمل ولا عن الغناء رغم أنها لم ترزق أى ميزة فى حنجرتها ، ترى فى المطبخ مساعدة لأمها أو حالة محلها ، أو جالسة إلى ماكينة الخياطة ، أو فوق السطح تتفقد أحوال الدجاج والأرانب . وعندما اكتظ البيت بعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم لعبت دور نائبة الأم وأسهمت فى اللعب والسرور والصراخ والعراك وتفوقت فى كل .

وقد اكتسبت منزلة لم يشاركها فيها أحد ، وحافظت عليها حتى آخر العمر ، وقاسمت الجميع همومهم رغم ثقل همومها ، وآمنت بأمها وأعتبرتها من صاحبات الكرامات . وما كادت تبلغ الخامسة عشرة حتى تقدم لطلب يدها صعيدى من الأعيان يدعى حمادة القناوى فتحقق الحلم الذى راودها منذ جاوزت العاشرة ! وكان ذهابها يمثل أول فراق فى الأسرة وأول فرح لها . وكان حمادة من معارف عمرو ، وكان من عشاق القاهرة فأقام بها مع أمه — عقب وفاة أبيه — مؤجرا أرضه البالغة ثلاثين فدانا لعمه فى قنا . وقد زارت رشوانة وراضية وزينب حرم سرور بيت الرجل بدرب القزازين ، وقالت رشوانة لأخيها عمرو :

— أم حمادة امرأة تقية لا تفوقها فريضة ..

وفى مجلس ببيت عمرو جمع بينه وبين سرور ومحمود بك عطا قال سرور أفندى :

— العريس عاطل لا عمل له وهذا شيء ردىء .

فقال عمرو :

— إنه يملك ثلاثين فدانا .

فقال سرور بغروره الحاوى :

— ولو .. إنه لا يكاد يفك الخط ..

فقال محمود عطا :

— قيمة الرجل فى ماله .

وقال عمرو :

— وأسرته محافظة طيبة .

وارتاحت صدرية إلى منظره ذى الطول والقوة ، وأناقة جبته وقفطانه ، ورجولة ملامحه ، كما تراءى لها من وراء خصاص المشربية .

وزفت إليه فى بيت اكتراه فى خان جعفر من أملاك الدهل الحلوانى . وقد أهداها محمود عطا حجرة الاستقبال كما أهداها أحمد بك عطا حليا وثيابا ، وأهداها عبد العظيم داود ثوب العرس . وبدأت صدرية حياتها الزوجية مع حمادة القناوى معتمدة على وصايا أمها وبركاتها ومهارتها الفائقة كست بيت . وكان حمادة مشكلة متعددة الأطراف . أجل تبادلا استجابة مفعمة بالمودة ، وشعر كلاهما بأنه فى حاجة متينة إلى الآخر .

ولكن صدرية كانت ذات حساسية وحدة فى الطبع والعناد لا يستهان به ، وكان الرجل ثرثارا ضيق الذهن محبا للفخر والسيطرة ، وهيأ له فراغه غير المحدود التدخل فيما يعنيه ومالا يعنيه . لم تعتد أن رجلا يغط فى نومه حتى الضحى ، ويستيقظ فيوقف نشاطها المنزلى ليحدثها حديثا لا أول له ولا آخر عن أسرته وأمجادها وأمجاده هو الخيالية ، ويلاحقها بملاحظاته الغبية عن عملها الذى لا يفقه فيه شيئا . ولم يكن يعرف من دينه إلا اسمه ، فلا يصلى ولا يصوم ، ولا تكاد تمضى ليلة دون أن يسهر فى البارزيانا فيشرب النبيذ ويتعشى بالمزة . لم يكفا عن الزوجية والإنجاب فأنجبت له « نهاد وعقل ووردة ودلال » ولم ينقطعا عن الجدل العقيم ، فيفاخر بأسرته من الملاك . وتساق إلى المفاخرة بآل عطا وداود والشيخ

معاوية بطل الثورة العرابية ، وأحيانا تحتد المناقشة فيتبادلان أقسى الكلمات .

وكانت صدرية حريصة على كتم بخار حلتها تحت غطائها المحكم ، وعلى حل مشاكلها بنفسها دون إشراك أهلها فيها . ولكن راضية كانت تفطن إلى أشياء بوحى غريزتها ، وأيضا بما لمسته فى الرجل من ثرثرة موجعة للرأس . وقالت لابنتها :

— الزوجة يجب أن تكون طبيبة !

فقالت صدرية :

— عليك بزيارة الأضرحة المفيدة لهذه الحال ..

فقالت راضية :

— وما جدوى زيارة الأضرحة فى هذه الحال ؟.. العلاج الناجع فى قطع لسانه !

والواقع أن أذى ثرثرته لم يقتصر على زوجته ولكنه جاوزها — بزياراته — إلى آل عمرو وسرور والمراكيبى وداود حتى صار نادرة فى الأسرة كلها . وتبين لها بعد ذلك أن عينه لا تعرف الحياء ، فهى تمتد إلى أى امرأة جميلة ذاهبة أو آتية فتنغص عليها صفوها أكثر وأكثر . وتسأله مستنكرة :

— أليس عندك حياء ؟

فيقول ساخرا :

— لا ضرر من النظر ..

ولكنها ضبطت إشارات متبادلة بينه وبين أرملة حسناء تقيم فى البيت المواجه لها . واشتعلت بها نار طيرت النوم من عينيها فظلت متيقظة حتى ميعاد عودته من سهرة البارزيانا . وغادرت بيتها إلى الطريق متلفعة

بالظلام وبيدها وعاء مملوء بالماء . وجاء الرجل يشق الظلماء فأحست بباب بيت الأرملة وهو يفتح وشبحها يتخايل فى مدخله . وتوقف الرجل ، ثم مال نحوها . وتقدمت هى بسرعة إلى منتصف الطريق وقذفت بالماء على شبح المرأة فصرخت وتهاوت فى الداخل . وذهل الرجل ونظر نحوها متسائلا :

— من ؟

فقالت بصوت محتدم :

— إلى بيتك يا قليل الحياء ..

وكان تلك الليلة يترنح . ودخل صامتا ، وهتف غاضبا :

— سأثبت لك أنى رجل متوحش عند اللزوم ..

ولكن الضحك غلبه فى سكره فارتمى على الكنبة وهو يقول :

— أنت امرأة مجنونة مثل أمك !

وخاصمته زمنا ، ثم رجعا إلى المعاشرة والمناقرة ، ولم يحسم الأمر بينهما إلا المرض . أصابه ضغط دم أثر فى سلامة قلبه فاضطر إلى الامتناع عن الشرب وحل به خمول عام يشبه — فى بعض مظاهره — الحكمة . ووفدت الأحزان ، ففقدت صدرية ابنتها وردة فى عز شبابها ، ثم أباها ، وأختها مطرية . وأخيرا مات حمادة وهو فى زيارة لأهله فى قنا ، وبقيت صدرية وحيدة فى خان جعفر رافضة الانتقال إلى بيت ابنها عقل رغم بره الشديد بها . ولما شعرت راضية بتدهور صحتها قالت لصدرية :

— أريد أن تكونى إلى جانبى حتى تغمضى عينى ..

فأغلقت بيتها راجعة إلى البيت الذى شهد مولدها لتكون إلى جانب الأم التى فضلتها على الجميع . كانت الأم قد جاوزت المائة بسنوات

والابنة قد اقتربت من التسعين رغم تماسكها ونشاطها . وتقضت تلك الأيام الأخيرة فى حومة الذكريات ، ورددت الأم أغنية كانت ترددها فى أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر ثم أسلمت الروح ، فأغمضت صدرية عينيها وهى تود أن تبكى فلا تستطيع ..

« صديقة معاوية القليوبى »

ثالثة بنات الشيخ معاوية وجليلة الطرابيشية ، وجاء مولدها بالبيت القديم بسوق الزلط بعد سجن الشيخ بنصف عام . وفاقت شقيقتيها راضية وشهيرة بجمالها ، بل كانت بوجهها المائل للبياض وخديها الموردتين وقسماتها المتناسقة وشعرها الأسود الغزير وقدها الطرى الرشيق مثالا للحسن بغير منازع فى الحى كله ، ولم يفقها فى الأسرة سوى مطرية بنت عمرو وراضية التى شابهتها فى الأصول وتجاوزتها فى الخفة والتهذيب . وكانت الوحيدة التى لم تنل حظها من تربية الشيخ الدينية ، فنشأت ثمرة خالصة لتراث جليلة ، مع عذوبة فى المعاملة وحب للغناء تزكيه حنجرة لا تخلو من جودة فى الأداء . ولجمالها وعذوبتها حظيت بأكبر قسط من حب أبناء راضية وبناتها ، وتقدم لها بعد وفاة أبيها بأعوام وبعد زواج شهيرة بعام واحد طبيب أسنان شامى من سكان الحى فزفت إليه ، وأقاما فى عمارة جديدة بالفجالة . وسرعان ما دهمتها الخطوب فمات زوجها قبل أن تحبل ، ومرضت بالسل ، ورجعت إلى حضن جليلة تنشد الأنس والشفاء . واهتزت قلوب الأسرة لفجيعتها ، وذوى جمالها وتغير حالها وتكالبت عليها الآلام دون أى أمل فى الشفاء . وشعرت بأنها

تنحدر نحو الهاوية ، وضاقت باليأس والألم والأرق والسعال ، وفى لحظة يأس مدلهمة رمت بنفسها فى البئر . وصوتت جليلة فهرع إليها أهل النجدة من الجيران ، وانتشلوا صديقة وهى فى الرمق الأخير . وقضت ساعات عذاب من ليل طويل محموم ، يحيط بها أمها وأختاها راضية وشهيرة ، وقد اكتظ المدخل بالرجال من الأسرة والجيران ، وفاضت روحها بعد نضال معذب قبيل الفجر وهى فى عز الشباب واليأس والألم . وحزنت جليلة عليها طويلا ، وأمرت بتغطية البئر بغطاء متين من الخشب والاستغناء عنها كلية . وكانت تحلم بها من حين لآخر وقالت مرة لراضية :

— فى ليلة سيدى الشعرانى رأيت صديقة على مقربة من البئر واقفة فى سحابة بيضاء مشرقة الوجه بابتسامة ..

فصدقتها راضية بإيمان عميق وسألتها :

— هل حدثتك يا أمى ؟

فقالت جليلة :

— سألتها عن حالها فقالت لى إن الله غفر لها انتحارها ، وإنها تخبرنى بذلك ليطمئن قلبى ..

فهتفت راضية :

— الحمد لله الرحمن الرحيم ..

فقالت جليلة :

— رأيتها فى غاية من الجمال كالأيام الماضية ..

« صفاء حسين قابيل »

هى الثانية فى ذرية سميرة وحسين قابيل ، ولدت ونشأت فى بيت ابن خلدون ، ورضعت فى مهدها اليسر والهناء مستظلة بأيام العز والهناء وخمائل حديقة الظاهر بيبرس . ومع أن جميع أبناء سميرة عرفوا بالجمال والصحة والنجابة ، فإن صفاء كانت أوفرهن جمالا ومرحا . كم لاعبت جدتها راضية ورقصت بين يديها ونفثت حرارتها الزكية فى كل مكان تحل فيه . ونمت بسيطة ومتسامحة ، تحب الحياة أكثر من المبادئ التى توزعت إخوتها وأخواتها . وهام بها حسين قابيل هياما واعتدها تحفة أجمل من جميع التحف التى يتاجر بها . ومضت فى الدراسة بنجاح حسن ، والتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية ، ومات حسين قابيل تاركا فى قلبها جرحا عميقا ، وشعرت بعناء أمها وهى تعد الأسرة لمستوى جديد من المعيشة فخيم على مرحها ظلام أشد من ظلام ليالى الحرب والغارات . وتلاقت فى تجوالها بشباب الأسرة ما بين آل سرور والمراكيبى وداود ولكن شاكر ابن خالها عامر كان الذى ألقى عليها شباك اهتمامه وإعجابه . كان طالبا بالطب فأمكنهما أن يلتقيا كثيرا بعيدا عن تقاليد الأسرة ، وبلغ قلبها فطامة على يديه ، فاعتقدت بأنه فتى المستقبل المأمول لإسعادها . ولم يغب عنها حرصه على إحاطة علاقتهما بالسرية ، ولم تدرك لذلك مغزى ، فسألته مرة :

— مم تخاف ؟

فأجاب بصراحة وسخط :

— ماما !

فعجبت لشأنه وشأنها وحدست أنه ليس الرجل كما ينبغى له .

ورجعت ذات يوم من كليتها فوجدت أمها واجمة متجهمة فأدركت لسابق معرفتها بقوة انضباطها أن حدثا قد حدث .

وقالت سميرة باستياء :

— عفت زوجة خالك !

وخنق قلبها وشعرت بتلاشى أملها . وقالت سميرة :

— صارحتنى بلا حياء بأن على أن أمنعك عن ابنها ..

فهتفت صفاء بغضب :

— ولكنى لا أطارده .

فقالت سميرة بأسى :

— أغلقى هذا الباب بالضبة والمفتاح ..

أجل . لا مفر من ذلك . ولا نجاة من الألم ، ولكن لماذا ؟. وواصلت سميرة :

— ينظرون إلينا من فوق ، وقديما حصل ذلك مع خالتك مطرية !

تساءلت بحنق :

— كيف يتصورون أنفسهم ؟!

— ما علينا ، أريد أن أطمئن عليك ..

فقالت باستهانة :

— اطمئنى تماما ..

وقد تجرعت ألما ومهانة ولكنها لم تخل من بعض سجايا أمها الفريدة وهى القدرة على التصدى للكوارث . وانقطعت العلاقة مشفوعة

بالازدراء . وتخرجت ، وتعينت مترجمة بإدارة الجامعة بوساطة الأكابر من أهل أمها !. ورآها السكرتير المساعد للإدارة فرغب فى الزواج منها . كان يكبرها بحوالى عشرين عاما ولكنه ذو درجة عالية ودخل لا بأس به . ووزنت العرض فوجدته مناسبا لحالها تماما ، وتبين لها أنها « عملية » أكثر مما ظنت . وزفت إلى صبرى بك القاضى بفيلته بحدائق القبة . ووهبتها حياتها الجديدة ما تحب من عيشة رغدة وزوج محب كريم وأمومة قنعت بولدين على وعمرو . ولما قامت ثورة يوليو لعبت بأسرتها كما شاءت فرفعت شقيقها حكيم وضيعت سليم ، ومن حسن حظها هى أن صبرى القاضى كان قريبا لضابط مهم فترقى فى مدة قصيرة حتى شغل وظيفة وكيل وزارة التربية ، وأحيل إلى المعاش لبلوغه السن ولكنه دفعها مرات حتى وصلت إلى درجة مدير عام . وأشرفت بنفسها على تربية على وعمرو حتى التحقا بالسلك السياسى . هكذا تألق هذا الفرع فى عقد البيروقراطية الماسى ونجا من شر العواصف .

« حرف العين »

« عامر عمرو عزيز »

أول هدية من عالم الغيب تغمر قلبى عمرو وراضية بالفرحة والرضا والفخر ، وتؤكد الحقيقة التى يؤمن بها ميدان بيت القاضى وهى أن ليس الذكر كالأنثى . وجاء مشرقا بوجه مليح ، يقتبس ملاحته من خير ما حظيت به راضية من استقامة الأنف وعلو الجبهة ، وما ستعرف به سميرة فيما بعد من دقة القسمات وتناسقها . ومن أبيه أخذ هدوء الطبع والتقوى ونزعة القيادة والرعاية . طالما جمع أخواته فوق السطح ليقوم بينهن بدور شيخ الكتاب ، وبيده عصا منعه من استعمالها الحياء والعذوبة . ونشأ نظيفا أنيقا يطوف بالأحياء باسما متأملا ويتربع أمام ضريح الحسين لاهجا بالدعاء . ونجح دائما فى كسب الأصدقاء من الجيران ، من طبقته ومن الطبقة الأعلى . ولم يستطع الأدنون أن يتحرشوا به أبدا . وفاز بالحظوة أيضا فى سراى ميدان خيرت وعند آل داود . وشق طريقه التعليمى بالنجاح وتفوق فى العلوم والرياضة ، وبفضل كبراء الأسرة نال امتياز المجانية فتخفف أبوه من عبء لم يكن ليتحمله وهو فى حومة تزويج صدرية ومطرية وسميرة .. ومنذ صباه حدث الميل المتبادل بينه وبين عفت بنت عبد العظيم باشا داود . حدث فوق السطح فى ظل الغسيل المنشور ، ونما مع الأيام والزيارات المتبادلة حتى صار حبا وحلما للمستقبل . وكانت تلك الأمور تقع سرا ولكن رائحتها تفوح كالوردة ،

وانتصر الحب أول ما انتصر على البنت المترفعة التى كانت تنظر إلى أسرتها من عل كأن الله لم يخلق للنبل إلا أسرتها . وقالت فريدة هانم حسام لعبد العظيم باشا :

— نحن نربى بناتنا فى المدارس الإفرنجية ليكن صالحات لطبيب أو وكيل نيابة من أسرة ..

فقال الباشا :

— عمرو ابن عمى ولا أعدل به أحدا ..

وكانت الهانم تشاركه عواطفه ، وتحب راضية ، وتحب عامرا بصفة خاصة فسرعان ما استجابت . وسر عمرو وراضية بذلك ، وكان عمرو تياها فخورا بأقاربه العظام فاعتبر ارتباطه بهم بالمصاهرة فوزا كبيرا . وكان محمود عطا بك يفكر فى عامر كزوج لشكيرة ، فلما سقط الفتى فى أيدى منافسيه قال لعمرو :

— سيكون حامد لشكيرة ..

وتمت بذلك سعادة عمرو ، الأمر الذى عرضه لملامة شقيقه سرور ، فأخذ عليه تجاهله لبناته ، ودافع عمرو عن موقفه متعللا بجمال بنات أخيه اللاتى لا يخشى عليهن من البوار ، وبفقر أولاده الذين فى حاجة إلى دعامة . فقال سرور بمرارة :

— إنهم يضنون عليك بالذكور ..

فتألم عمرو ولكنه قال مستوحيا طبيعته المتواضعة :

— رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ..

فقال سرور وهو يدارى غضبه :

— أصبحت يا أخى درويشا لا تغضب !

وود عامر أن يلتحق بمدرسة الطب معتمدا على تفوقه العلمى ، ليكون أهلا بكل معنى الكلمة بعفت ، ولكن أباه اختار له مدرسة المعلمين لامتيازها بالمجانية ، قائلا لابنه المحبوب :

— المجانية فى الطب متعذرة ، والعين بصيرة واليد قصيرة ..

وكان عامر مثالا فى الطاعة والتجاوب مع الحقائق مهما تكن مرارتها ، فقال لأبيه متظاهرا بالرضا :

— المعلمين مدرسة عليا على أى حال ..

وتسامحت عفت وآلها ، وقالت عفت لنفسها إن معلما تحبه خير من طبيب لا تحبه . وهضم عامر خيبة أمله العسيرة ومضى فى طريقه مكللا بالنجاح والرضا . ولما قامت ثورة ١٩١٩ دخل معبدها مع أسرته ، واشترك فى المظاهرات ، من قلبه الصافى يحيا سعد . وكان فى السنة النهائية فسرعان ما ابتعد عن النشاط المباشر بممارسة حياته العملية . وقد اتفق على الزواج بعد عام واحد من ذلك التاريخ . أصبح ضيفا فى أسرته التى لم يخلف فى صدور أبنائها إلا كل طيب ، باستثناء المشاحنات التى كانت تقوم بينه وبين أخيه حامد بسبب طبيعة حامد المتمردة وسلوكه الجامح .. وكم بذلت راضية من تعاويذها وتمائمها لطرد روح الشر من بين الشقيقين ، ولكن ما إن بدآ حياتهما العملية حتى حل الصفاء مكان الكدر . وكان عبد العظيم داود قد شيد لابنته بيتا فى بين الحناين ، دخلته الكهرباء والماء والمجارى ، وتحلى فى خلفيته بحديقة صغيرة ، فانتقل عامر مع عروسه المتفرنجة إلى البيت الجديد ليستهل حياة زوجية سعيدة طويلة . وقد هز الزواج أسرة آل عمرو من أول يوم . وضح تماما أن العروس الجديدة من طراز مخالف لأخوات عامر ، فهى متخرجه فى الميردى دييه ،

ترطن بأكثر من لغة ، وتتقن اللعب بالبيانو ، وتعرف معلومات عن فرنسا وتاريخها وديانتها ولا تكاد تعرف شيئا عن بلدها تاريخا أو عقيدة ، وتفاخر بذلك دون خفاء ، برغم تفشى الروح التى أطلقتها الثورة الوطنية . وكانت ذات شخصية قوية متسلطة فالتهمت شخصية زوجها الوديعة الدمثة ، فلم يجرؤ الشاب على تذكيرها بأن الصوم واجب فى رمضان ، وصام وحده معتمدا على نفسه فى إعداد سحوره ، وإلى ذلك فقد بهر برطانتها ومهارتها فى العزف . ولما خرج العدليون على سعد زغلول وجد عامر نفسه غريبا فى آل داود ، وتجنب تكدير الصفو بالدفاع عن وفديته الكامنة فطواها فى صدره . ولم تكن عفت تهتم بالسياسة أى اهتمام جدى ، ولكنها جارت أباها تعصبا له ليس إلا ، وكانت تقول لزوجها :

— لا وجه للمقارنة بين عدلى باشا النبيل وبين زعيمك الأزهرى !

فيبتسم عامر متحاشيا الجدل ، ومرة سأله عبد العظيم داود :

— هل تعتقد حقا أننا نستطيع تحمل أعباء الاستقلال ؟

فتساءل عامر :

— لمَ لا ؟

فأجاب الرجل :

— حسبنا استقلال ذاتى ولكننا بدون حماية الإنجليز نضيع بلا رحمة ..

أيضا فإن راضية غضبت من تعالى عفت واستسلام عامر رغم صداقتها الوطيدة مع فريدة هانم ، ورغم إعجابها بجمال عفت ، وقالت لابنها :

— الرجل يجب أن يكون سيدا فى بيته ..

وقالت لعمرو :

— عفت تتوهم أنها أميرة ..

فقال لها الرجل :

— لا تحرضى عامر على ما يفسد سعادته ..

واقتنعت بذلك آخر الأمر ، خاصة بعد أن أنجبت عفت شاكر وقدرى وفايد الذين أحبتهم راضية بمجامع قلبها . واستوعب الحب المكين كافة التناقضات ، واستوت زيجة عامر وعفت مثلا نادرا فى الزيجات الموفقة . زواج لم يعرف الملل أو الانتكاس أو الفكر وأثار الغيرة والحسد ، قال حامد عنه :

— سر سعادة أخى أنه ذاب فى إرادة زوجته ، ياله من ثمن ..

وعلى عادة سرور أفندى فى النقد المر قال يوما لزينب زوجته :

— لقد تزوج حامد برجل كما تزوجت عفت بامرأة ..

ووفق عامر فى حياته المهنية توفيقه فى حياته الزوجية ، فكان من أحب المعلمين إلى تلاميذه وأعظمهم تأثيرا فيهم ، ومن القلة التى تعيش ذكراها مع الأجيال التى تربيها حتى آخر العمر . وقد انتفع بذلك فى زيادة إيراده بفضل الدروس الخصوصية ، وفى تذليل كثير من الصعوبات بفضل ذوى النفوذ من تلاميذه السابقين ، أما أعلى درجة سجلها حظه فقد حدثت بعد قيام ثورة يوليو ووجدان اثنين من تلاميذه فى مجلس قيادة ثورتها . أما عفت فقد مقتت الثورة لإلغائها باشوية شقيقها ولم تغفر لها استهانتها بالمهن الرفيعة كالطب والقضاء ، ولكن عامرا شعر بأنه — بفضل تلميذيه — من رجالها رغم وفديته المكبوتة بين جدران آل داود . ولم تكن سعادة عامر بأبنائه دون سعادته بزواجه . لتفوقهم ونجاحهم ، ولكنهم أحدثوا له

ولأمهم متاعب ، لم تجر لهم على بال ، سواء كان ذلك بسبب السلوك الشخصى أم بسبب السياسة ، ثم عرف كل أمر مستقره ، واستقبل عامر حياة معاش امتد ربع قرن فى بيت صار مثالا لرفقة الشيخوخة كما كان مثالا لسعادة الحب . وحافظ الرجل على صحته وحيويته ، يقرأ الصحف والمجلات ، ويسمع الأغانى ، ويشاهد التليفزيون ، ولتفوقه فى الصحة وتدهور زوجته راح يقدم لها الخدمات ويشرف بنفسه على الخادم والطاهية ، ويلاعب الأحفاد ، أو يوخزه الحنين فيمضى مع أحد أبنائه فى سيارته إلى الحى العتيق ، فيزور البيت القديم حيث يقيم قاسم ، ويصلى فى الحسين ، ويجلس ساعة فى الفيشاوى ، ويتناول غداءه عند الدهان ، ثم يرجع إلى بين الجناين منتشيا مغرد الروح . وعاش حتى قارب التسعين ، فطرب لأمجاد يوليو ، وانكوى بخمسة يونية ، وأفاق فى ١٥ مايو ، وطرب مرة أخرى فى ٦ أكتوبر المجلجلة ، وانقبض فى ٦ أكتوبر الدامية ، وفارق الدنيا بهدوء يغبط عليه كختام حسن . استيقظ صباحا فى ميعاده ، مضى إلى المطبخ ليعد الشاى لنفسه ولعفت ، وعاد به ليحسواه فى الفراش ولما فرغ من قدحه قال :

— قلبى ليس على ما يرام .

واستلقى على ظهره ليستريح ، وسرعان ما مال رأسه على الوسادة وكأنما قد غفا ..

« عبد العظيم داود يزيد »

الابن الوحيد الذى بقى من ذرية داود باشا وسنية الوراق . نشأ فى بيت السيدة وتلقى تربية رفيعة من أم هانم وأب يعتبر من الرجال المعدودين فى عصره . ومنذ صغره خالط أهله فى الحى العتيق ، وأحب بصفة خاصة ابن عمه عمرو ، ولكنه خالط أيضا نوعا آخر من البشر هم الأجانب من أقران أبيه الذين كثيرا ما تناولوا عشاءهم على مائدته وتبادلوا الأنخاب . تقلب بين التراث والمعاصرة ولكن الدين لم يلعب فى حياته عشر معشار دوره فى حياة صديق روحه عمرو . وكان نحيلا أسمر وسيم الطلعة كبير الرأس راجح العقل كبير الطموح . وشق طريقه الدراسى بتفوق ثم التحق بكلية الحقوق . كان أمل أبيه أن يجعل منه طبيبا ولكنه عشق البلاغة والآداب وتخصص فى القانون المناسب لأمثاله من أبناء الكبراء . وتعين فى النيابة دون حاجة إلى وساطة أبيه العظيم واستحق من أول يوم احترام رؤسائه وخاصة الإنجليز . ولعله أول من اختار زوجة برؤية عينية فى أسرته . لمح فريدة فى حنطور الأسرة ، فسره لونها الأبيض وقسماتها الأنيقة ، ثم عرف اسم الأسرة . وذهبت سنية الوراق وراضية ورشوانة لزيارة الأسرة الكريمة ورفع التقرير عنها . وكان حسام تاجر حرير سوريا وذا مال ، وزفت إليه فريدة فى فيللا شارع السرايات مصطحبة معها جمالا جديدا ومالا واستعدادا طيبا للمعاشرة الزوجية . وأنجبت له مع الأيام لطفى وغسان وحليم وفهيمة وعفت . وكان عبد العظيم ممتازا فى عمله وذا اهتمام بالسياسة . وكان من أنصار حزب الأمة وصديقا لبعض

رجاله المبرزين وممن يؤمنون بتهريج الحزب الوطنى . وتوهج فؤاده بالحماس لثورة ١٩١٩ ولكن ما إن انقسمت الجبهة حتى مال بعقله وقلبه إلى عدلى يكن وصحبه . وكان يرمق انزعاج ابن عمه عمرو مقهقها ويقول :

— سحرك المهرج الكبير ..

فيقول عمرو :

— إنه زعيم الأمة وأملها ..

كان عمرو يشعر بدفء الرابطة بينه وبين عبد العظيم عندما يزوره هذا فى بيت القاضى ، أما إذا ذهب عمرو إلى فيللا السرايات فتواتيه غربة فى الجو « الإفرنجى » الذى يسود السلوك والعادات ، من ذلك أن عبد العظيم باشا كان يفتح شهيته عادة بكأسين من الويسكى ، أو يخاطب كريمته فهيمة وعفت أحيانا بالفرنسية ! وكان محمود عطا المراكيبى يتودد إلى الباشا ويحب أن يوثق علاقته به رغم المنافسة الخفية بين الأسرتين . والحق أن عبد العظيم باشا لم يكن يميل إليه ولكنه تبادل معه الزيارة إكراما لابن عمه عمرو . وقد أراد محمود بك أن يستعين بنفوذه فى إحدى قضاياه الكثيرة فقطب عبد العظيم وقال بوضوح :

— الظاهر أنه لا فكرة لك عن نزاهة القضاء ..

وكان محمود بك يؤمن — بوحى حياته العملية — بأن الشعار شىء والواقع شىء آخر ، فصدمه جفاء صاحبه ولعنه فى سره . ولكنه وجد نفسه معه فى جبهة واحدة بعد الانقسام السياسى . وأراد أن يهون من شأن الخلاف فقال :

— الولاء للملك أو الإنجليز سيان ..

فقال عبد العظيم باشا :

— لا ولاء للإنجليز ولكنها صداقة ..

— أليس الملك أفضل ؟

— الملك ذو ولاء للإنجليز ونحن دعاة الدستور .

— ولكن الدستور سيسلم الحكم لسعد .

— لعله وهم ..

— إنه يسحر الناس بدعوة الاستقلال التام ، وبهذه المناسبة ما رأيك فى هذه الدعوة ؟!

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير :

— المجانين لا يعرفون معنى الاستقلال ، الاستقلال مسئولية ضخمة ، من أين لنا الإنفاق على الدفاع ؟!..

أليس الأفضل أن نترك ذلك للإنجليز ونتفرغ لإصلاح أحوالنا ؟

فقال محمود بك بحرارة :

— صدقت ، واستقلال زغلول خليق بأن يقود إلى ثورة عرابية جديدة ..

وقد حقق لطفى البكرى لأبيه أمله بخلاف غسان وحليم ولكن عبد العظيم يعتبر بصفة عامة أبا سعيدا . وكاد لطفى ينحرف عندما مال إلى مطرية بنت عمرو ولكن الله سلم ، وإن أسف عبد العظيم على موقفه من ابنة حبيبه عمرو . وولى مع الأيام مناصب قضائية عظيمة ثم أحيل إلى المعاش وهو رئيس لمحكمة الاستئناف العليا . ولقوة حيويته عمل محاميا حتى الخمسينات ، ثم تقاعد بعد أن طعن فى السن . ولم يقعد عن الحركة فكان يذهب كل مساء إلى مقهى لونا بارك ليلعب الطاولة مع المعمرين من

جيله . ولما قامت ثورة يوليو كان قد توغل فى الشيخوخة للدرجة التى يهون معها الاهتمام بالأشياء . وأصابه التهاب حاد فى البروستاتا فنقل إلى المستشفى ولكنه أسلم الروح بعد يومين .

« عبده محمود عطا المراكيبى »

ولد ونشأ فى سراى ميدان خيرت . وهو الثالث فى ذرية محمود بك ونازلى هانم ، واتسم منذ صغره بالوسامة والنجابة . وتربى فى أحضان العز ، وتلقن مبادئ الأخلاق والتهذيب والتدين على يد أمه الجميلة المهذبة ، ونما نفورا من الاختلاط بصفة عامة فعرف أهله من آل عمرو وسرور ورشوانة ولكنه لم يتخذ صديقا منهم . وأغرم بالرياضة وتفوق خاصة فى السباحة ، وعشق المطالعة ، وشق طريقه فى المدارس بتفوق أهّله للالتحاق بكلية الهندسة . ولما تخرج التحق بسلاح المهندسين بالجيش بعد المعاهدة . وبدأ يخرج عن خط الأسرة السياسى فلم يتشيع للملك كأبيه وعمه ، ولكنه انضم إلى الجيل القلق الغاضب على الجميع والمتطلع إلى الجديد مثل قريبه حكيم حسين قابيل . واقترحت عليه أمه الزواج من آل الماوردى وهم أسرة إقطاعية ، فتزوج . واستأجر لعروسه شقة أنيقة فى الزمالك ، غير أن ذلك الزواج لم ينجب ولم يوفق ولعل فائدته الوحيدة انحصرت فى تعريفه بنفسه وأبعادها . تبين له أنه رغم يسره لا يطيق الإنفاق ويتألم لبذل قرش واحد فى غير موضعه ودون حساب وتخطيط . وكانت جولستان من محبات البذخ والحياة الاجتماعية والتباهى بكافة جماليات المظاهر المبهرة ، فعجز كل طرف عن النزوع عن شيء من

تقاليده وعاداته ، فارتطما فى عنف جعل من حياتهما جحيما لا يطاق .

وقالت له الفتاة بصراحة :

— لم نخلق لحياة مشتركة .

فقال لها متلمسا طريقه للنجاه :

— أوافق على ذلك دون قيد أو شرط !

وهجرت بيت الزوجية انتظارا للطلاق ، ودرست المسألة على أعلى المستويات ، فوجد عبده من والديه تأييدا لموقفه أو على الأقل معارضة صريحة لأسلوب جولستان فى الحياة . وقال محمود بك :

— أنا لا أحب الطلاق ولكنه ضرورة لا مهرب منها فى بعض الظروف .

ووقع الطلاق جارا وراءه خسائر مادية لا يستهان بها ما بين مؤخر الصداق والنفقة مما حمل الشاب على اتخاذ قرار من الزواج التزم به بقية عمره . وعاد إلى حجرته الجميلة بالطابق الثانى من سراى ميدان خيرت ، مكرسا نشاطه لعمله ومطالعاته المتنوعة . وألف المزاج بينه وبين أخته نادرة وأخيه ماهر ، وانضم الأخوان فى الوقت المناسب إلى الضباط الأحرار . ولما قامت ثورة يولية وجدا نفسيهما بين رجال الصف الثانى ، وكان محمود بك قد توفى قبل ذلك فنجا الورثة من قبضة الإصلاح الزراعى . وتقلد عبده مركزا قياديا فى سلاح المهندسين ، وعقب النكسة تولى رياسة شركة المعادن جزاء ولائه المستمر لعبد الناصر . ورغم تأثره الشديد لهزيمة ٥ يونية إلا أنه كان ضمن الذين اعتبروا أن خسارة الأرض كارثة تهون بالقياس إلى النصر المعنوى الذى حققه البلد بالاحتفاظ بزعامة عبد الناصر والنظام الاشتراكى . وطبعا لم يكن سعيدا

بطرد أخيه ماهر لولائه لعبد الحكيم عامر ، كما لم يسعد من قبل بإحالة أخيه الأكبر حسن إلى المعاش ، وتعزى دائما بقوله :

— الوطن فوق كل شيء ..

واستغنى عنه فى عهد الرئيس السادات فآوى إلى بيته وأرضه ، ولما هل عصر الانفتاح أنشأ مكتبا هندسيا مع بعض الزملاء وأثرى ثراء فاحشا . ولم يبارح السراى التى ولد فيها ولا الطبع الذى قضى عليه بالوحدة ، والتزم بالحياة البسيطة رغم إيغاله فى الثراء ويقينه من أنه يكنز المال للآخرين ..

« عدنان أحمد عطا المراكيبى »

ولد ونشأ بسراى آل المراكيبى بميدان خيرت ، وتلقى فى أحضان النعيم مبادئ التربية الرفيعة والدين . وبالرغم من أنه نما بين والد وديع دمث وأم هانم جليلة المقام والخلق (فوزية هانم شقيقة نازلى هانم) ، إلا أنه كان أشبه بعمه الجبار محمود بك فى صلابته وميله إلى السيطرة . وكان أكثر ذلك الجيل حبا لآله الآخرين عمرو وسرور ورشوانة ، وتعلقا بالحى العتيق . ومن بادئ الأمر تمرد باطنه على عمه الجبار الذى يفرض سطوته على السراى بما فيهم أسرة شقيقه أحمد . وما كاد يناهز الحلم حتى أعلن سخطه على وصاية عمه واستئثاره بإدارة الأرض كأنه مالكها الوحيد . وسأل أمه عن سر ذلك فقالت :

— أبوك راض بذلك ..

فانقلب إلى أبيه يحاوره ، حتى نغص عليه صفوه . وقال له بصراحة :

— إنه لوضع مهين !

ومازال وراءه حتى أخرجه من جنته فكان ما كان فبدأ الخصام الذى قسم الأسرة العريقة إلى جبهتين متعاديتين ، فأنكر الأخ أخاه والأخت أختها وأبناء العم والخالة أبناء عمهم وخالتهم . وتحدى عدنان عمه فبصق هذا على وجهه ، وتبادل عدنان وحسن الضرب فى حديقة السراى ، فأظلت الأسرة غمامة سوداء مازالت تحجب النور والدفء عنها حتى تلاشت عند احتضار أحمد بك . وتسلم أحمد بك أرضه وهو على جهل تام بكل شيء ، وحدثت خسائر لا مفر منها ، حتى ختم عدنان دراسته الزراعية وهرع إلى بنى سويف فتسلم العمل من أبيه وأنقذه من التلف . وكان عدنان بخلاف أخيه وأبناء عمه يعشق بنات البلد ، فأحب أرملة فى الخامسة والثلاثين على حين لم يكن جاوز الثلاثين ، وأعلن رغبته فى الزواج منها غير ملق بالا إلى جزع أمه ، وحقق رغبته وجاء بست تهانى إلى السراى ثم حملها إلى سراى العزبة . وقد أنجبت له فؤاد وفاروق ثم انقطعت عن الحمل . وكانت كلما ضاقت بالريف سافرت إلى القاهرة لتنكد عيشة فوزية هانم . ولما قامت ثورة يوليو كان عدنان — لأكثر من سبب — الوحيد الذى طبق عليه قانون الإصلاح الزراعى ، ولم يكن يختلف عن أبيه وعمه ولاء للعرش وكراهية للثورة ، ولكن لم يند عنه قول أو فعل يعرضه للمؤاخذة . وقد نجح فؤاد فى أن يصير زراعيا كأبيه ويعاونه أما فاروق فلم يوفق فى الدراسة واحترف الإجرام على الأسلوب الريفى حتى قتل رميا بالرصاص وهو يغادر المسجد عقب صلاة الجمعة . وقد سعد عدنان بالاعتداء الثلاثى ولكن سعادته انتكست ، وسعد أكثر فى ٥ يونية ، وتمت سعادته فى سبتمبر ١٩٧٠ ، وبتولى السادات رجع الرجل

إلى الشعور بالولاء نحو الحاكم ، وشاركه بقلبه انتصاراته فى ٦ أكتوبر والسلام ، أما الانفتاح فقد اعتبره بابا من أبواب الجنة ، وعمل فى تربية العجول والدجاج والبيض وربح أرباحا خيالية ، ولم يكتف بذلك فانضم إلى الحزب الوطنى وانتخب عضوا فى مجلس الشعب ..

« عزيز يزيد المصرى »

ولد ونشأ فى الدور الأول من بيت الغورية فى ظل بوابة المتولى ، وهو بكرى يزيد المصرى وفرجة الصياد . وقد أنجب الزوجان ولدين وأربع بنات فماتت البنات وهن فى المهد وبقى عزيز وداود . وتمتع الولدان بصحة جيدة ونمو يبشر بالقوة مع وسامة فى الخلق ووضوح فى الملامح ، واتخذا من الطريق العامر بالناس والحوانيت وعربات اليد المحفوف بالجوامع والمآذن ملعبا ما بين البوابة ووكالة الوراق فى الجمالية حيث كان يشتغل أبوهما خازنا بوكالة الوراق . وجاءت الحملة الفرنسية وذهبت قبل أن يبلغ الشقيقان الوعى فمر بهما نابليون بونابرت كما يمر بياع الفجل أو بياع الدوم . ولما استوى عزيز طفلا ناضجا قال عمر يزيد المصرى بلكنته الإسكندرية :

— آن أوان الكتاب ..

فاعترضت فرجة الصياد قائلة :

— بل أرسله إلى أمى فى السوق ..

فقال :

— فك الخط هو الذى يسر لى عملى فى وكالة الوراق ..

وكانت فرجة تؤمن بالسوق التى جاءت منها ولكنها لم تستطع أن تثنيه عن رأيه . وبارك رأيه — فضيلة الشيخ القليوبى فى قهوة الشربينى ، فقال :

— نعم الرأى .. وبعد الكتاب إلى الأزهر .

ولاذ الصديق الثالث عطا المراكيبى بالصمت . وعطا المراكيبى كان ساكن الدور الثانى ببيت الغورية هو وزوجه سكينة الفرارجى وابنته الوليدة نعمة . وقد تم التعارف بين الرجال الثلاثة فى دكان عطا المراكيبى فى الصالحية ، ثم صارت تجمعهم قهوة الشربينى بالدرب الأحمر فيشربون الزنجبيل ويدخنون الحشيش . وكان الشيخ القليوبى مدرسا فى الأزهر ، وقد دعاهما على الغداء أكثر من مرة فى بيته بسوق الزلط . رأوا وليده معاوية وهو يلعب بين البئر والفرن . وتساءل عطا المراكيبى :

— هل تدخله الأزهر بعد الكتاب ؟

فقال يزيد :

— يفعل الله ما يشاء .

لكنه كان يقنع من الدين بالفرائض المتاحة كصديقه عطا ولا طموح له بعد ذلك . والتحق عزيز بالكتاب ثم لحق به داود فحفظا أجزاء من القرآن وتعلما مبادئ القراءة والكتابة والحساب . وفى تلك الأثناء وقع داود فى مصيدة التعليم ونجا عزيز بمعجزة ظل يحمد الله عليها حتى آخر عمره . وكان من حياة داود ما كان أما عزيز فلما بلغ سن العمل سعى له الشيخ القليوبى فى ديوان الأوقاف فتعين ناظرا لسبيل بين القصرين . ارتدى الجلباب والمركوب وشملة من الكتان صيفا وأخرى من الصوف شتاء ، ولكنه استبدل بالعمامة الطربوش فعرف فى الحى بعزيز أفندى على

سبيل الفكاهة ، ثم التصقت به على مدى العمر . وتقرر له مليم على كل قربة فقال له يزيد :

— من الله عليك بوظيفة مهمة ..

لم يكن يحزنه فى تلك الأيام السعيدة سوى عثرة حظ أخيه ، وتضاعف حزنه حين تقرر إرساله إلى فرنسا . وسأل صديقه الشيخ معاوية الذى حل محل أبيه فى الأزهر بعد تقاعد الرجل لكبره :

— ما ذنب داود يا شيخ معاوية ؟

فأجاب الشاب :

— ليس كل علوم الكفار بكفر ولا الإقامة فى بلاد الكفار ، وليحفظه الله ..

ودخل عزيز فى فرن المراهقة ، وتسلل إليه رغم تقواه الخطأ فقال يزيد لفرجة :

— علينا أن نزوجه ..

فقالت فرجة :

— نعمة بنت صديقك عطا مليحة ومناسبة ..

وزفت إليه البنت فى بيت أبيه بالغورية ، وعقب عامين تزوج صديقه الشيخ معاوية من جليلة الطرابيشية فى بيت سوق الزلط . وعاش يزيد المصرى وفرجة حتى شهدا مولد رشوانة وعمرو وسرور ، ثم مات يزيد فى أثناء عمله بالوكالة ودفن بحوشه الذى بناه على كثب من ضريح سيدى نجم الدين بعد حلم رأى فيه الشيخ وهو يدعوه إلى جواره ، ولحقت به فرجة الصياد بعد عام واحد من وفاته . وحدثت أمور ذوات شأن ، فقد ماتت سكينة أم نعمة ، وتزوج عطا المراكيبى من أرملة غنية كانت تقيم فى

الدور الأعلى للبيت المواجه لدكانه ، وانتقل الرجل فجأة إلى طبقة عالية ، فشيد سراياه بميدان خيرت ، وابتاع عزبة ببنى سويف ، وأنجب على كبر محمود وأحمد ، واستهل حياة جديدة كأنما هى حلم من الأحلام . ووجد عزيز أفندى نفسه صهرا لرجل عظيم من الأعيان كما وجدت نعمة زوجته نفسها ابنه لذلك الرجل العظيم . ولهجت الألسنة بقصة عطا المراكيبى وحظه وذوبان الزوجة الغنية تحت جناحه ، ولكن نعمة لم يصبها من ذلك كله خير ، لا هى ولا أسرتها ، فيما عدا بعض الهبات فى المواسم . وقال الشيخ معاوية لصديقه عزيز :

— إذا سبقت الزوجة زوجها فى الوفاة ورثها مع ابنيه ، فترثه زوجتك ، أما إذا سبق هو فلاحظ لحرمك ..

وكان آل عطا وآل عزيز يتبادلون الزيارات ، ويختلط عمرو وسرور ورشوانة بمحمود وأحمد ، ويقلب عزيز عينيه فى الحديقة والتحف ويغمغم فى نفسه :

— سبحان المنعم الوهاب ..

ويقول لصديقه الشيخ معاوية :

— إنه جلف لا يستحق النعمة .

فيقول الشيخ :

— لله فى خلقه شئون ..

وفى أثناء ذلك رجع داود من فرنسا طبيبا ، ثم تزوج من حفيدة الوراق وأقام فى بيت السيدة وأنجب عبد العظيم . وعلم عزيز أفندى ابنيه عمرو وسرور فتعين عمرو فى نظارة المعارف كما تعين سرور فى السكك الحديدية ، وتزوجت رشوانة من صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش

وزفت إليه فى بيته بين القصرين ، وتزوج عمرو من راضية كبرى بنات الشيخ معاوية كما تزوج سرور من زينب النجار ، وانتقل الأخوان إلى بيتين متجاورين فى ميدان بيت القاضى . ولما قامت الثورة العرابية اشترك فيها عزيز بقلبه ولكن الشيخ معاوية أسهم بقلبه ولسانه ، وحكم عليه بالسجن بعد تصفية الثورة .

وقد تم زواج عمرو من راضية فى الفترة التى أعقبت الإفراج عن الشيخ ، ولكن لم يتسن للشيخ شهود الزفاف فقد وافاه الأجل بعد أسبوع من إعلان الخطبة وقراءة الفاتحة . وحظى عزيز أفندى بالصحة وطول العمر والراحة الزوجية ولم يعان الفقر أو الحرمان ، وتمتع بدفء الوشائج العائلية ما بين ميدان خيرت والسيدة وسوق الزلط ، وتقدست منزلته عند ذريته كما فرح بتعليمهم وانتسابهم إلى الحكومة وخطرانهم فى البدلة والطربوش . ولم يخل مع الأيام من اعتزاز بمنزلة شقيقه الأصغر ورتبته ، خاصة بعد أن اطمأن إلى إيمانه ومحافظته على الفرائض وولائه الودود له وجلوس الأسرتين حول الطبلية كلما آنسه بالزيارة وطوافه معه بالحسين والقرافة . ومن الله عليه فشهد مولد أحفاده ، وأكرمه أخيرا بميتة طاهرة فأسلم الروح وهو ساجد فوق سجادة الصلاة فى صباح يوم من أيام الخريف فى بيت الغورية .. ودفن إلى جوار أبيه فى حوش الأسرة الذى أصبح يعرف بحوش نجم الدين ..

« عفت عبد العظيم داود »

ولدت ونشأت بفيلا الأسرة بشارع السرايات بالعباسية الشرقية . وبها ختم عبد العظيم باشا داود وفريدة حسام ذريتهما المكونة من لطفى وغسان وحليم وفهيمة وعفت . ولدت عفت على وسامة لا يستهان بها ، امتزج فى وجنتيها بياض أمها الشامية وسمرة أبيها فأسفرا عن لون قمحى مورد وعينين لوزيتين سوداوين لا تخلو نظرتهما من تسلط ومكر ، وتقلبت فى نعيم فى فيلا أنيقة تحدق بها الرتب والنياشين فنهضت ـــ كسائر أعضاء أسرتها ـــ على قوائم راسخة من الكبرياء والتعالى والغرور .. ومن بادئ الأمر لم يرض الأب لكريمتيه الأمية أو شبه الأمية كبنات الفروع الأخرى ، كما لم يفكر فى تعليمهما تمهيدا للعمل الأمر الذى رآه أولى ببنات الفقراء من عامة الشعب ، فاختار لهما التعليم التهذيبى فى نظره الذى يعدهما للزواج من الكبراء . ووجد بغيته فى المدارس الأجنبية والميردى ديه بصفة خاصة . وتعلمت عفت الفرنسية والإنجليزية والآداب وفن البيت والموسيقى ، وتشربت روحها بتراث غريب حتى ليخيل للرائى أنها إفرنجية ذوقا وعقلا وتراثا . ومع أنها لم تنطق بكلمة تخدش إيمانها إلا أنها عاشت حياتها وهى تجهل دينها وتراثها جهلا تاما ، ولا تجد فى ذاتها أى انتماء إلى وطنها رغم معايشتها لثورة ١٩١٩ ، لولا تعصب سطحى لموقف أبيها السياسى انطلقت إليه من منطلق الكبرياء والأسرة . ولكن الغريزة تمردت على ذلك كله فأمالت قلبها منذ الصغر نحو عامر قريب أبيها . فى ذلك الزمان كانت رابطة الأسرة أقوى من الطبقة والرتبة والجاه والثروة ،

وكانت زيارة بيت القاضى تعد فى وجدان آل داود من الرحلات الممتعة ، بمناظرها الطريفة وأغذيتها البلدى وغيبيات راضية ، رغم أن شعورهم بالتعالى لا يمكن أن يفارقهم . ولم يجد الميل المتبادل بين عامر وعفت معارضة فى بيت عبد العظيم ، بل لعله وجد ترحيبا . وعلى أى حال فالنظرة إلى البنت تختلف عن النظرة إلى الولد ، فإهداء بنتهم إلى ولد من آل عمرو لا بأس من قبوله ، أما أن يرغب ولد من آل داود فى بنت من بنات عمرو أو سرور فانحراف خطير يجب أن يكبح بكل حزم . ودماثة أخلاق عمرو هونت عليه التسامح مع ذلك الموقف وتلمس الأعذار له ، أما سرور فلم يعفه من لسانه الحاد الذى أبعده درجات عن قلوب آل المراكيبى وآل داود جميعا . كان عند الضرورة يقول متهكما .

— لماذا ينسى آل عطا العظام المراكيب ودكان الصالحية ؟.. ولماذا ينسى آل داود عم يزيد وفرجة السماك ؟

ولما آن لعفت أن تتزوج شيد لها الباشا بيتا جميلا فى بين الجناين استقبلت فيه حياتها الزوجية السعيدة التى حطمت منطق أعداء الزواج . أجل فمنذ اليوم الأول سلكت عفت سلوك أميرة وضعتها الظروف بين الرعية ، فلم تخل الحياة الجديدة من توترات بين عفت وأخوات عامر ، أو بنات سرور ، أو شكيرة عندما صارت سلفة لها ، بل حتى راضية نفسها على ما بينها وبين فريدة حسام من مودة ، ولكن لم ينعقد الخصام لحد القطيعة أو العداوة ، وغلب دائما هوى المودة القديمة الراسخة ، أما ما بين الزوجين فقد مضى فى عذوبة وسلام ، وتسليم كلى من جانب عامر لإرادة محبوبته القوية فلم يرتفع له صوت غضب أكثر من مرات معدودات ، ولم يبيتا أبدا على خصام . وقد أنجبت له شاكر وقدرى

وفايد ، ولم تستطع أن تمد فوقهم مظلة سطوتها ، فجرح شاكر كبرياءها ، وحرك قدرى مخاوفها وإشفاقها ، ولكن ثلاثتهم كانوا أمثلة طيبة للنجابة والنجاح . وقامت ثورة يوليو وتعاقبت الهزائم ثم هل النصر والسلام وتجمعت سحب الفتن والجريمة ، وهى لائذة بحصن المتفرج لا يعنيها شىء إلا بقدر أثره المباشر على أسرتها أو أبنائها . وتقدم بها العمر وهدأت نوازع كبريائها ونعمت رغم جريان الأحداث برفقة حبيب العمر والأبناء والأحفاد ، حتى غاب عامر عن دنياها فى غمضة عين وهو يحادثها ، ومن ثم استقبلت حياة صامتة تعلوها كآبة دائمة ..

« عطا المراكيبى »

فى الأصل كان صبيا فى دكان الصالحية لصاحبها المغربى جلعاد المغاورى ، التقطه الرجل يتيما ورباه وأذن له بالبيات فى دكانه . وأثبت الصبى جدارة وأمانة ، ولزم صاحبه حتى صار شابا يافعا قوى الجسم ربعة غليظ القسمات ضخم الرأس ، فزوجه من ابنته الوحيدة سكينة وجعله نائبه فى الدكان . وأقام معه فى مسكن الغورية جارا للمعلم يزيد وابنه عزيز . ولما رحل جلعاد وزوجه ورثت سكينة الدكان شرعا وورثها عطا فعلا ، وكان متحليا بأخلاق التجار الدمثة يغطى بها خشونة سجاياه فأمكنه أن يكون صديقا ليزيد والشيخ القليوبى . أما سكينة فكانت على قدر من الوسامة وبنيان هلهله الضعف ، فتلكأ إنجابها فترة ، ثم أنجبت نعمة عقب ولادة عسيرة كادت تبذل فيها حياتها . وورثت نعمة عن أمها عينيها السوداوين النجلاوين ونعومة بشرتها السمراء وغزارة شعرها

الكستنائى مع صحة جيدة . وكانت سكينة جارة حسنة الجوار ففازت بقلب فرجة السماك ومهدت بذلك الطريق لزواج نعمة من عزيز فى الوقت المناسب. وجمع مقهى الشربينى بالدرب الأحمر بين الشيخ القليوبى ويزيد وعطا ليلة بعد أخرى ، وشهد الرجال نابليون بونابرت على جواده وهو يسير على رأس جنوده أمام المشهد الحسينى ، وعاصروا تقلبات حملته ، وخاصة ثورتى القاهرة ، وكاد يزيد يهلك فى الثورة الثانية ، وعاصروا بعد ذلك ولاية محمد على ومذبحة المماليك . والثورة التى أحدثها الوالى فى البلد وأهلها . ورغم أن الشيخ القليوبى كان يمتاز بثقافته الدينية إلا أن الوشائج الشعبية والتراثية كانت تقربه من وجدان صاحبيه ، ولم يغب عنه ما طبعا عليه من حرص وجهل ولكنه كان يأخذ الناس على علاتها ويقنع منها بالجانب الأليف والمودة المتاحة . وقد دعاهما مرات إلى بيت سوق الزلط فى مقابل مرة يتيمة دعى فيها إلى بيت الغورية ، وكان يزيد أحب إليه من عطا ، ولمس فيه أركانا من الرجولة والشهامة والتقوى افتقدها فى الآخر . ومع ذلك لم يضق أبدا بعطا ولا فكر فى نبذه . وظل عطا على حاله من القناعة والرقة حتى توفيت امرأته سكينة بعد عام من زواج ابنتها نعمة من عزيز أفندى ابن المعلم يزيد . وإذا بالحى كله يفاجأ بزواجه من الأرملة الثرية هدى الألوزى . كانت تقيم فى بيتها العتيق على الجانب المواجه لدكان المراكيبى فهل كان للقصة تمهيد قديم لم يفطن إليه أحد ؟. وقال القليوبى ليزيد :

ــ ستحدث أمور ، لا يمكن أن توافق هدى هانم على بقاء زوجها فى دكانه ..

وراح عطا يفكر بعقل مدبر لم يجد من قبل الفرصة المناسبة لاستغلال

مواهبه . وشاور فى أمره أهل الحل والعقد فى تلك الشئون من جيرانه الأغنياء واليهود المدربين . وفى الحال اقتنى أراض فضاء ، وشرع فى تشييد السراى الكبرى بميدان خيرت ، وعقب مرور زمن اشترى عزبته فى بنى سويف وأقام فيها السراى الريفية . وأنجبت له هدى هانم الألوزى محمود وأحمد ، ومضى يدرس الزراعة ويوثق علاقاته بجيرانه الجدد ، والحق أن الثروة كشفت عن مواهبه الكامنة وقوة شخصيته ، كما هتكت حرصه وشحه وجشعه اللانهائى إلى الثراء . وبخلاف الظنون فرض سيطرته الكاملة على امرأته والمتعاملين معه حتى شبهه الشيخ القليوبى بالوالى الذى جاء مصر جنديا بسيطا ثم تعملق فوق هامة إمبراطورية مترامية . بل كانت نهاية إمبراطور بنى سويف خيرا من نهاية الوالى ألف مرة . ووهنت علاقته بأصدقائه القدامى ولكنه لم ينقطع من زيارة نعمة وعزيز فى الغورية ، يغزو الحى فى حنطوره طاويا نظرات الحسد تحت حذائه ، مقدما الهدايا العابرة فى المناسبات ، ويدعو الأسرة إلى سرايا ميدان خيرت ، الأمر الذى ربط بالمحبة قلوب رشوانة وعمرو وسرور ومحمود وأحمد . ولكن نوبات كرمه تلك لم تجاوز حدودها أبدا ، بل بدا أن ابنيه أحن على أختهما الفقيرة نعمة منه هو . وطبعا دفع بابنيه إلى المدارس ولكن أنفاسهما انقطعت بعد الابتدائية كابنى أختهما عمرو وسرور ، ولم يأبه لذلك وراح يعدهما للزراعة إلى جانبه ، أما محمود فقد شرح صدره بقوة استجابته وصلابة شخصيته ، وأما أحمد فقد خاب أمله فيه حتى تركه يائسا لحياته الوادعة . وكان بكرى العرشى رب أسرة مملوكية تجاور عزبته وكانت له بنتان ، نازلى وفوزية ، مثالان فى الجمال والتهذيب ، فخطبهما لابنيه محمود وأحمد ، واحتفل بزواجهما فى فرح واحد أحياه عبده الحامولى وألمز . وعمر عطا فى

الوجود حتى أدرك الثورة العرابية ، ولم تغز وجدانه من مدخل وطنى ولكن من زاوية أملاكه وأمواله ، فلما صعدت موجتها حتى ظن لها النصر المبين أعلن تأييده لها ، وتبرع بشىء من المال طاويا آلامه فى صدره ، ولما تكالبت عليها القوى المعادية ولاح فشلها فى الأفق أعلن ولاءه للخديو . وجاء عصر الاحتلال البريطانى فساوره القلق مرة أخرى من تلك الأحداث التى لا يدرى ما عقباها على أرضه . وقال له نسيبه بكرى العرشى :

ـ لن يغادر الإنجليز هذا القطر ولن نخرج ما حيينا من الإمبراطورية البريطانية ..

ولما شعر بأنه يمضى نحو النهاية قال لابنه محمود :

ـ سأترك لك نصيحة هى أغلى من المال ، اعتبر العزبة وطنك وهبها كل نقطة إخلاص فى قلبك وحذار من الخطب والشعر ..

ومات الرجل بالشيخوخة وحدها ، ولحقت به زوجته بعد أشهر ، فورث الثروة كلها محمود وأحمد ، وانطفأ أمل عزيز ونعمة إلى الأبد ..

« عقل حمادة القناوى »

فى خان جعفر ولد ، وفيما بين بيت القاضى وبين القصرين وحارة الوطاويط وابن خلدون والعباسية الشرقية وبين الجناين وميدان خيرت ، لعب وطاف وساح وصادق وأحب . وهو الثانى فى ذرية صدرية وحمادة القناوى ، اقتبس من أمه عينيها الجميلتين ومن أبيه أنفه الأفطس وقوة جسده مع ميل شديد إلى القصر . وعشقه أبوه وكرسه بكل فخار وليا للعهد . وتابع نجاحه فى التعليم بسعادة وزهو ، فعوضه عن جهله وأميته خيرا وأى خير . وعشق منذ صباه الدين والهندسة ، والتحق بكلية الهندسة ، ولم ينقطع عن القراءات الدينية ، ومال إلى الفلسفة الدينية أيضا ثم جرفه تيار من الأفكار المتضاربة فاستقر عمرا فى مقام الحيرة . وفى تجواله فى فروع أسرته أعجبته هنومة بنت خالته سميرة فأراد أن يحجزها لنفسه ولكن البنت قالت لأمها :

ـ أنا أطول منه بصورة واضحة فهو غير مناسب !

وصدمه ذلك وأشعل فى جوارحه الغضب . وظل مواظبا على الصلاة والصوم رغم شكوكه . لم يستطع أن يؤمن ورفض أن يكفر ولاذ بالفرائض . وتفشى الشك فى خلاياه فلم يستطع أن ينتمى. انتبه إلى الوفد فى عصر هبوطه ، وكره انغلاق الماركسيين ، واحتقر تهريج مصر الفتاة ، ولما قامت ثورة يوليو نفر منها رغم عدم مساسها له لشعوره بعداوتها لطبقة الملاك التى ينتسب فى النهاية إليها . وحزن كثيرا على أخته وردة كما حزن على أبيه . ولما تخرج توظف فى مكتب هندسى وفكر جادا

فى الزواج لعله ينتشله من الخواء الذى يخنقه . وأعجبته أخت لزوج أخته نهاد فخطبها وتزوج منها ، وأقام معها فى شقة فى عمارة صغيرة مجاورة لبيت خاله عامر ببين الجناين . وكانت لهفته على الإنجاب حارة كآل أبيه ، ولكن تبين له أنه عقيم لا ينجب . وشد ما أحزنه ذلك وأوجعه . وقالت له جدته راضية :

— لا تصدق الأطباء ولا تيأس من رحمة الله ..

وتبدت له الحياة فى صورة رغائب مستحيلة . دائما حبيبة ومستحيلة . ولما خلا بيت أمه من الأنيس وانفردت صدرية بوحدتها قال لها :

— تعلمين كم أحبك ، أقيمى معنا فى بين الجناين ..

فقالت باسمة :

— لا أترك الحسين ولا جدتك .

وحرص أكثر على أداء الفرائض وعلى جنى أرباح موهبته المعمارية .

وذات يوم قال لحكمت زوجته :

— لا أحب أن تبقى معى يوما واحدا دون رغبة حقيقية ..

فتجهمت دقيقة ثم قالت :

— إنى راضية تماما والحمد لله ..

فالشك أخذ يساوره فى مستقبل علاقته بزوجته ، كما مضى يملك عليه تفكيره بالنسبة لمستقبل وطنه الذى يتزحزح من مأزق إلى مأزق . ولم يعاوده تنفسه الطبيعى إلا فى عهد السادات . ووجد فى الانفتاح فرصة لأعمال كبيرة تنسيه الوساوس والهواجس . واختار الشقق ميدانا لتجارته مستفيدا من مدخراته وبيع نصيبه من ميراث أبيه . وربح أموالا طائلة ،

وعمل بنشاط فائق حتى عبر الستين ، وعند ذاك تساءل :

— وبعد ؟!

وفكر طويلا ثم قال لحكمت :

— مللت العمل وآن لنا أن نستمتع بأموالنا ..

فتساءلت ببراءة :

— ماذا ينقصك ؟

فضحك ساخرا وقال :

— السياحة ، علينا بالسياحة ، سنرى الدنيا ونذوق أجمل ما فيها ..

فارتبكت . إنها لم تعرف من دنياها إلا قرية أبيها وبين الجناين ولا رغبة لها فى المزيد .

ولما لمس حيرتها قال :

— لن تحتاجى معى إلى ترجمان ..

وقال لنفسه إذا كرهت الفكرة مضيت لها وحدى . ولكنها كالعادة طاوعته ومضت تجهز الحقائب . وانطلقت من جوفه شرارة شك فتأمل ما حوله قليلا ثم قال لنفسه :

— لا يبعد أن تحترق بنا الطائرة ، إنى خبير بمنطق الحوادث !.

ولكن الطيارة لم تحترق والوساوس لم تخمد ..

« عمرو عزيز يزيد المصرى »

ولد ونشأ فى بيت الغورية ، بين رشوانة وسرور ، وتشرب قلبه رحيق الحى بحب وشغف ، فاختالت فى نفسه تقاليد أهل البلد وانتشر من أردانه عبير الروح والدين . ولعله كان أحب الثلاثة إلى عزيز ونعمة لشبهه بأبيه بجسمه الملىء فى اعتدال وبشرته القمحية وعينيه الواسعتين الصافيتين . وكان العقل المدبر الكابح لرشوانة وسرور فى لعبهم وتجوالهم بين بوابة المتولى وسبيل بين القصرين ، وعرف فيما بعد بالحكيم الذى يرجع إلى رأيه فى شتى الأمور . وحظى بنفس المنزلة بين خاليه محمود وأحمد وابن عمه عبد العظيم . وقد أخلص لفرائض الدين منذ صغره ، ولعب دور الشرطى فى حياة سرور المحفوفة بالنزوات . ودخل الكتاب فحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم دخل المدرسة الابتدائية فى الثانية عشرة من عمره فحصل على الابتدائية بعد بذل أقصى ما يملك للتعلم . وبسعى من داود باشا عين فى حسابات نظارة المعارف . وحاز دائما تقدير الرؤساء والزملاء ، وأثرى حياته بصداقة الأصدقاء ، ونورها بقراءة القرآن وكتب الأولياء ، ونوع مجال حركته بأريحية معطرة بحب الدين والدنيا ، فكان يشهد الأذكار فى الصنادقية ، ويسمع الحامولى فى الأفراح ، ويجالس الأحباب فى الكلوب المصرى . وكان هادئ الطبع ، ينال بالحلم ما لا يناله بالقوة والغضب ، وما كاد أبوه يزكى له فكرة الزواج حتى رحب بها ترحيب شاب قوى تقى . وتم اختيار راضية له ، كبرى بنات الشيخ معاوية صديق أبيه ، فزفت إليه فى

بيت حديث البناء بميدان بيت القاضى ، حيث ، استهل حياة زوجية موفقة مثمرة . وجد فى راضية شخصية مناقضة لذاته ، بعصبيتها وعنادها ، وغيبياتها التى لا ضابط لها ، ولولا هدوء طبعه وحلمه ما جرت الأمور فى مجراها الآمن مع عدم إهدار شىء من مهابته فى بيته . ولكنه لم ينج من تأثيرها فآمن بتراثها وطبها الشعبى ، واضطر إلى أن يسمح لها بزيارة أضرحة الأولياء ، رغم أنه كان يفضل أن تستكن فى بيتها أسوة بزينب امرأة أخيه والهوانم زوجات محمود وأحمد وعبد العظيم . قالت له فى اختيال :

— كلهن هوانم طيبات ولكنهن جاهلات لا شأن لهن بأمور الغيب ..

وفى مقابل ذلك جعلت له من بيته مستقر رحمة ومودة ، وأنجبت له صدرية وعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم . وكان عمرو — بخلاف سرور — فخورا بأهله ، بسراى ميدان خيرت وفيللا شارع السرايات والأراضى والأملاك والرتب ، ولذلك حظى بيته بعطف الجميع ، وطاف به الحنطور تلو الحنطور ، يحمل إليه أعيان بنى سويف وهوانمهم وآل داود وهوانمهم ، يجلسون حول طبليته ، ويغمرونه بالهدايا ، ويستمعون إلى نوادر راضية وتراثها منوهين ببطولة أبيها بطل الثورة العرابية . وتلك المودة العميقة هى التى فتحت باب المصاهرة إلى آل عطا وآل داود فزادت منزلته رفعة وقوة ، وأثارت من سوء التفاهم بينه وبين سرور ما كان خليقا بأن يفسد العلاقة بينهما لولا متانة الأساس وعمق الذكريات . وطالما قال سرور بحسرة :

— لو ماتت هدى الألوزى قبل عطا المراكيبى لكنا من الوارثين !

فيقول :

— لا اعتراض على المشيئة الإلهية .

تغلب على تلك الوخزة بسماحة إيمانه ، وكان دأبه إذا ناوشته نقمة أن يذكر نفسه بالنعم الكثيرة المتاحة كالصحة والأولاد . أجل تفجر غضبه يوم وأد آل داود ميل لطفى لمطرية وترك راضية تهدر قاذفة لعناتها وقال لنفسه :

— صدق من قال إن الأقارب عقارب !

ولكنها كانت غمامة ما لبثت أن تلاشت تحت أشعة شمس دائمة واتسع قلبه أيضا للعواطف الوطنية . فاته أن يشارك أباه خيبته لنكسة الثورة العرابية ، ولكنه كثيرا ما رأى جنود الاحتلال وهم يطوفون بالحى العتيق كالسائحين . وأفعم وجدانه فيما بعد بكلمات مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم بلغ قمة انفعاله فى ثورة ١٩١٩ ، وعشق زعيمها ، واشترك فى إضراب الموظفين ، وحافظ على ولائه للزعيم رغم انشقاق أهله العظام محمود وأحمد وعبد العظيم عليه . وتابع خليفة الزعيم — مصطفى النحاس — بكل وجدانه ، ووزع الشربات يوم عقد المعاهدة . وأيد الزعيم بقلبه ضد الملك الجديد ، وغضب مع الغاضبين لإقالته من الحكم رغم أنه كان يعانى ضعف القلب الذى أودى به بعد ذلك بقليل . وقد تحمل عبء الأولاد وهم فى رعايته ، وشارك فى همومهم بعد أن استقل كل ببيته . وكان يقول :

— نحن نحلم بالراحة دائما ولكن لا راحة مع الحياة ..

ثم يلوذ بإيمانه تاركا الخلق للخالق . وكم ناط بقاسم من آمال ، وماذا كان المصير ؟!. ولما أحيل إلى المعاش غشيته وحشة لم يكن يفيق منها

أبدا ، ثم دهمه مرض القلب من حيث لم يحتسب فحدد حركته ومسراته الحميمة وغاص به إلى قعر الكآبة . وذات مساء وهو جالس فى الكلوب المصرى أغمى عليه ، فحمل إلى فراشه فى حال احتضار ، وأسلم الروح قبيل الفجر على صدر راضية ..

« حرف الغين »

« غسان عبد العظيم داود »

ولد ونشأ فى فيللا شارع السرايات وهو الثانى فى ذرية عبد العظيم باشا داود . ولعله الوحيد من أبناء عبد العظيم باشا الذى لم يقتبس من رواء أمه فريده هانم حسام شيئا . كان مائلا للقصر ، نحيفا ، غامق السمرة ، متجهم الوجه غالبا ، وغالبا يحمل طابع المتقزز كأن ليمونة تعصر فى فيه !. وكأنما خلق ليشمئز من الدنيا ومن عليها ، فهو فى الفيللا منفرد بنفسه فى حجرته ، أو يتمشى فى الشوارع الشرقية الصامتة تحت ظل أشجارها الفارعة ، أو يتوغل فى الصحراء الخالية ، لم يعرف له صديق واحد من الجيران ، ولا نمت بينه وبين أخويه لطفى وحليم أو حتى فهيمة وعفت وشيجة أخويه ، وفى المرات النادرة التى لاعب فيها أخاه حليم سواء فى حديقة الفيللا أم فى الشارع انتهت بسوء تفاهم وخصام ، وختمت مرة بمشاجرة هزم فيها رغم أنه الأكبر . واصطحبه أبوه معه لزيارة أهلة خاصة آل عمرو ، ودعى مرة مع الأسرة إلى سراى آل عطا بميدان خيرت ، فكان يشاهد بعينيه ولا يكاد ينبس بكلمة ولم يفز بصديق واحد .

وأطلقوا عليه « عدو البشر » ، وتهكموا بوجه الصامت المشمئز ، وعوده النحيل ، ونفوره الدائم ، وكبريائه المتوحد . أجل كانت عيناه تعكسان شعاع النهم وهما تنظران إلى البنات الجميلات من قريباته ولكنه لم يصل النظرة بابتسامة ولا بأى إشارة . ويقول له أبوه :

— يجب أن تخرج من عزلتك .

فيقول بنبرة قاطعة :

— إنى أعرف أين توجد راحتى ولا أهمية لشىء وراء ذلك ..

— وماذا تفعل فى حجرتك المغلقة ؟

— أسمع أسطوانات .. أو أقرأ ..

ولكنه لم يكشف عن أى موهبة ذوقية أو فكرية . وقد تابع رؤية أبيه السياسية ربما لأنها وافقت تعاليه واحتقاره الطبيعى للعامة ، واعتبر المطالب الوطنية والزعامة الشعبية ألوانا من التهريج المبتذل . ولم تغب عن حاسته تدنى صورته الكئيبة بين صور أسرته الرائقة ، وتحدى عزة نفسه قدر من الغباء أعجزه عن بلوغ التفوق الجدير فى نظره بمركزه الاجتماعى وكبريائه الطبقى . وقد قسا على نفسه وكلفها من الاجتهاد ما لا تطيق ، وسهر الليالى فى المذاكرة فلم يظفر إلا بالنجاح العادى الذى بالكاد ينقله من مرحلة إلى مرحلة فى ذيل الناجحين . سام نفسه العذاب ليتفوق دون جدوى ، ورمق المتفوقين بالحقد والاحترام ، وأترع قلبه بالأسى لعجزه . كيف يعاشر هذا العجز على حين أن جده باشا وأبوه باشا وشقيقه الأكبر باشا ؟!. وتراءى له المستقبل كخصومة عارية مفعمة بالتحدى والاستفزاز . ولم يجد فى الدين أى عزاء لأنه كسائر إخوته لم يعرفوا الدين إلا عنوان هوية بلا مضمون ، فعبد العمل عبادة ووهبه نفسه كلها ليقنع

فى النهاية مرغما بأقل ثمرة تنبتها أرضه القاحلة . ولما التحق بالحقوق وجد هناك قريبه لبيب بن سرور أفندى محاطا بهالة من الإعجاب لتفوقه وحداثة سنه فضاعف ذلك من كآبته وتعاسته ، واحتج على الأقدار التى ميزت قريبه الفقير ابن الفقير بالموهبة وحرمته منها هو سليل الباشوات والمهن القضائية والطبية الرفيعة . ولعل من أسباب احتقاره للوطنية كان حماس أهله الفقراء — وآل عمرو وآل سرور — لها ، فلم يتحمس لثورة ١٩١٩ فى إبانها وسرعان ما لاذ بجناح الخارجين عليها مع أبيه وأسرته . وعند التخرج رأى قريبه يتعين فى النيابة ، ووجد نفسه رغم العرق والسهر فى الذيل . وبسعى من أبيه المستشار الكبير عين فى قضايا الحكومة بوزارة المعارف فالتحق بالعمل ساخطا متبرما رغم أنه لا يستحقه . واشتهر فى حياته العملية بالانطواء والاجتهاد والغباء ، ولدى كل حركة ترقيات كان أبوه يسعفه ، ومضى فى عزلته ما بين الديوان والفيللا ، بلا صديق ولا حبيبة ، لا يكاد يبرح مكتبته التى كونها عاما بعد عام إلا حين الضرورة القصوى . وربما رؤى وحيدا فى حديقة عامة أو فى النادى ، وربما تسلل فى حذر تام إلى بيت راق من بيوت الدعارة السرية . وقالت له فريدة هانم حسام :

— آن لك أن تفكر فى الزواج ..

فرمقها بدهشة وامتعاض وتمتم :

— لم يبق إلا هذا ..

أكثر من سبب كره إليه فكرة الزواج . فى مقدمتها انغماسة فى وحدته المقدسة وعجزه عن الخروج منها وخوفه أن ترفضه الفتاة اللائقة بمركزه وأسرته للمآخذ الكثيرة التى لا تغيب عن وجدانه . ولم تكف فريدة هانم

عن القلق عليه، خاصة بعد وفاة عبد العظيم باشا وشعورها بدنو الأجل، وبأنها ستتركه فى فيللا كبيرة خالية. يضاف إلى ذلك ما صبته عليه ثورة يوليو من أحزان جديدة لم تخطر له على بال من قبل. تساءل فى جزع:

— أيبلغ بنا التدهور أن تحكمنا مجموعة من العساكر الأميين ؟!

وراقب ما حاق برتب أسرته وقيمها القانونية والطبية بفزع، وتساءل:

— هل أبكى اليوم رعاع الوفد ؟!

وقالت له فريدة:

— غدا ألحق بأبيك، يلزمك زوجة وأبناء ..

فقال لها بخشونة:

— العقم هو العزاء المتبقى لنا !

وأصر على عناده الحقود، ولم يتزعزع تصميمه بعد وفاة أمه، وأحيل على المعاش فى أوائل السبعينات فواصل حياته فى وحدته كالشبح، وكأنما لم يحظ من دنياه إلا بصحة متينة صامدة قانعا من مسرات الدنيا بالطعام والكتب ثم بالتليفزيون والخادمة الجديدة ..

« حرف الفاء »

« فاروق حسين قابيل »

الخامس فى ذرية سميرة وحسين قابيل. ولد ونشأ فى شارع ابن خلدون، واستقبل الدنيا بجسم رشيق قوى ووجه وسيم مثل إخوته وأخواته، وذكاء وقّاد يبشر بكل خير، ولكنه نما فى مناخ الانضباط الذى ساد الأسرة بعد وفاة حسين قابيل. ومنذ صغره حلم بأن يكون طبيبا وبعزيمة قوية حقق حلمه عابرا عقبات التنسيق. وقد توزع قلبه الحماس لثورة يوليو بحكم مولده وميلا مع أخيه حكيم، والنفور منها أحيانا عطفا على الإخوان وحبا فى أخيه سليم الذى قذف به فى السجن. ووجد الخلاص من التناقضات فى الاهتمام بمهنته، فحصل على الدكتوراه، وفتح عيادة خاصة إلى جانب عمله فى المستشفى. وجمع الحب بينه وبين زميلة هى الدكتورة عقيلة ثابت، فتزوجا وأقاما فى شقة حديثة بمصر الجديدة. وشد ما حزن فاروق على مصير شقيقه حكيم، وغربة شقيقه سليم، فقد عرف أبناء سميرة بقوة تماسكهم، كما عرفوا أيضا — كأمهم — بالصمود حيال المصائب. ولكنه تجنب الجهر بآرائه السياسية خارج محيط أسرته اتعاظا بما أصاب أخويه حكيم وسليم، متفرغا لمهنته. وفى هذا المجال أحرز منزلة فريدة كجراح، كما وليت زوجته مناصب رفيعة كمولدة، وقد أنجبت له بنتين توجهتا بكفاءة نحو الطب أيضا. وكان فاروق من القلة التى آمنت بسياسة السادات فيما عدا الانفتاح غير المنضبط الذى فتح

أبوابه باندفاع جرَّ على البلد ويلات اقتصادية لا يستهان بها . ولم يكن ضمن القطاع الذى سر لمصرعه ، وقال مرة لخاله عامر :

— لقد ولى السادات نيابة عن عبد الناصر ثم قتل كذلك نيابة عنه !

ومما يذكر له كطبيب معدود ومقصود أنه لم يتهاون فى جانب المبادئ فلم تجاوز تسعيرة أتعابه حدود المعقول أبدا ..

« فايد عامر عمرو »

الابن الثالث لعامر وعفت . ولد ونشأ كأخويه فى بيت بين الجناين ، وكان كثير الشبه بجدته فريدة حسام فى بياض البشرة وجمال العينين ، ورشاقة القد . وقد رضع غير قليل من تراث راضية وعمرو والحى العتيق ، ولكنه تشبع بتقاليد جدته فريدة وجده عبد العظيم باشا داود . ومنذ صباه عشق القانون والمجد القضائى ، كما عشق الثقافة الحديثة ، ثقافة السينما والراديو ثم التليفزيون ، ورغم حبه لجديه عمرو وعبد العظيم فلم يكترث لا للوفد ولا للأحزاب الأخرى ، ولما تخرج فى الكلية كان من المتفوقين ، وبفضل تفوقه ومنزلة عبد العظيم باشا تعين من فوره فى النيابة . ولعله الوحيد من أبناء عفت وعامر الذى لم يكدر صفوهما بسلوكه أو فكره مثل أخويه شاكر وقدرى ، ولما أعلن ذات يوم أنه يحب بنتا تدعى ماجدة العرشى طالبة بكلية الحقوق اضطربت عفت لمرارة التجارب الماضية ، ولكنها سعدت عندما توكدت من أن البنت كريمة لطبيب وحفيدة لطبيب أيضا وأن الأسرة على مستوى طيب جدا ومناسب جدا . وقالت عفت لعامر :

— أول زيجة تبل الريق !

وتزوج فايد ودخل فى شقة بمصر الجديدة . ولما قامت الثورة لم ينفر منها رغم إهدارها لرتب جده وخاله ، بل ربما مال إليها ولم يخف ذلك عن أمه وأبيه .. قال :

— جاءت فى وقتها تماما ..

وترقى فايد فى درجاته المعهودة حتى درجة المستشار . ولم يتغير موقفه من الثورة وزعيمها ، حتى محنة ٥ يونية لم تغيره وإن مزقت قلبه تمزيقا . أما السادات فقد أيده فى حربه وفتحه صفحة الديموقراطية من جديد ، وشك كثيرا فى خطوة السلام ، ثم لعنه بسبب الانفتاح والنكسة الديموقراطية ، ومع أنه لم يوافق على الاغتيال إلا أنه لم يحزن عليه واعتقد أنه نال ما يستحقه تماما . ولم ينجب فايد سوى بنت وحيدة ، وقد تخصصت فى الكيمياء ، ودعتها عفت باسم أمها فريدة .

« فرجة الصياد »

عرفتها الغورية فى الرابعة عشرة ، قوية الجسم ، مليحة الوجه ، تجول فى جلباب أزرق ، وعلى رأسها مقطف فيه سمك وميزان . اضطرت إلى الخروج من مسكنها فى السكرية بعد وفاة أبيها وعجز أمها عن الحركة ، ورعتها تقاليد الجيرة والتقى . وذات يوم ناداها رجل قوى ذو لهجة غير قاهرية ليبتاع سمكا فأنزلت المقطف إلى الأرض وقرفصت وراءه وراحت تزن له رطلا . ونظر إليها مليا ثم قال :

— أنت حلوة يا شابة ..

فقالت له بخشونة :

— تريد السمك أم الميزان يحطم وجهك ؟

فشخر الرجل بعفوية فانتصبت واقفة مستعدية أهل المروءة . وانقض على الرجل الغريب رجال وتحرج الموقف ، ولكن برز من الجمع رجل يعرفونه هو عطا المراكيبى وهتف :

— صلوا على النبى ..

وضحك قائلا :

— إنه إسكندرى ، جارى فى بيتى ، لا يعرف عادات البلد ، والشخر عندهم كالتنفس عندنا ..

وأنقذ جاره ومضى به إلى دكانه ..

وعطا نفسه تشاءم من مقدم الرجل ، لأنه جر وراءه جيش الكفار ، جيش نابليون ، وقد سأله :

— ماذا جاء بك ؟

فأجاب :

— قتل الوباء أهلى فعزمت على هجر الإسكندرية .

وتغير الحال عندما تزوج عطا من سكينة ابنة معلمه فتفاءل بمقدمه وأحبه وقال له :

— قدم خير يا عم يزيد !

ولم ينس يزيد المصرى فرجة الصياد فقال لصاحبه :

— أريد أن أكمل نصف دينى ببياعة السمك ..

وخطبها عطا المراكيبى من أمها ثم زفت إليه فى شقته ببيت الغورية .

ويقول عطا المراكيبى إنه بمجرد أن أغلق الباب على العروسين سمع

المدعوون فى الصالة الخارجية شخرة تنفذ من ثقب الباب مثل قرقرة الماء فى النارجيلة !

وقد وفق يزيد المصرى فى زواجه وأنجبت له فرجة ذرية كثيرة لم يبق منها إلا عزيز وداود . وامتد العمر بالزوجين حتى شهدا مولد الأحفاد . وفى ليلة رأى يزيد رجلا فى المنام قال له إنه نجم الدين الذى يصلى أحيانا فى ضريحه ونصحه قائلا :

— شيد قبرك جنب ضريحى لنتلاقى كما يتلاقى المحبون ..

ولم يتردد الرجل فبنى حوشه الذى دفن فيه ، ومازال حتى اليوم يستقبل الراحلين من ذريته المنتشرة فى أنحاء القاهرة .

« فهيمة عبد العظيم داود »

كانت تدعى بعاشقة الورد من طول مكثها فى حديقة الفيللا بشارع بين السرايات . وكانت أجمل ذرية عبد العظيم باشا داود ، وفى الجمال فاقت فريدة هانم حسام . وربما كانت فى الذكاء دون عفت ولكنها كانت أطيب قلبا وأصفى روحا . وقد تربت معها فى الميردى ديه ولنفس الهدف أى إعدادها للحياة الزوجية الرفيعة . وجاء زواجها تقليديا رغم ذلك فخطبت — عن طريق جارة — لوكيل نيابة يدعى على طلعت . وشيد عبد العظيم باشا داود لها بيتا فى بين الجنابين كما فعل لعفت وزفت فيه إلى العريس . وكانت الزيجة فى غاية من التوفيق ، وأنجبت له داود وعبد العظيم وفريدة ، ولكن سوء البخت الذى تربص بالأسرة بعد ذلك صار مضربا للأمثال . فقدت فهيمة ذريتها بعد أن اكتمل لها الشباب وأضاء الأمل .

مات داود بالتيفود وهو طالب فى السنة الثالثة بكلية الحقوق ، ومات عبد العظيم بالكوليرا بعد تخرجه من العلوم بأشهر ، وماتت فريدة بروماتيزم القلب وهى فى الثانوية العامة . وأذهل الأسى العميق الوالدين لدرجة الزهد فى الحياة ، فطلب على طلعت الإحالة إلى المعاش وهو مستشار فى استئناف القاهرة وتفرغ للعبادة والقراءات الدينية فى عزلة دائمة ما بين بيته والقرافة ، أما فهيمة — وهى من أسرة يقبع الدين فيها منزويا على هامش حياتها — فقد بدأت تتساءل عن المصير ، وعن اليوم الذى تجتمع فيه بذريتها الهالكة مرة أخرى ، وراحت تقتنى من السوق جميع ما فيها من كتب الأرواح وتحضيرها والقوى الخفية ، وآمنت أخيرا براضية وتراثها الذى كانت تتابعه فيما مضى بابتسام وسخرية . وقال لها أبوها عبد العظيم باشا :

— الصبر يا بنتى ، وددت لو كنت الفداء لأبنائك :

فقالت له :

— أنت الخير والبركة يا بابا ، ربنا يطول لنا فى عمرك ..

وكان كلما شيع جنازة شاب من أبنائها فتقدم المشيعين بشيخوخته الطاعنة شعر بحرج وما يشبه الذنب ، وتضايق من النظرات المحدقة به فى إجلال صامت . وما لبث على طلعت أن انتقل إلى رحمة الله مصابا بأنفلونزا حادة فوجدت فهيمة نفسها وحيدة فى ملكوت أرواحها ، وقد عمرت طويلا بعد وفاة والديها وأقاربها من ذلك الجيل العريق المقدس للتقاليد ووشائج القربى ، فباتت نسيا منسيا فيما عدا كلمة تتبادلها فى التليفون مع شقيقتها عفت ..

« حرف القاف »

« قاسم عمرو وعزيز »

آخر عنقود ذرية عمرو وراضية . ولد ونشأ فى بيت ميدان بيت القاضى ، وهو الوحيد من الأبناء الذى لم يبارحه . وبدا من مطلعه نخيلا متحركا ، ولم يكن به شبه واضح لوالديه ، ولكنه إذا ضحك استحضر صورة أبيه الضاحكة ، وإذا انفعل ذكر الملاحظ براضية . وكان السطح ملعبه والميدان بأشجاره الفارعة وعاش بكل وجدانه فى أمطار الشتاء ورياح الخماسين . ولم يتح له أن يتخذ من أحد من إخوته أو أخواته رفيقا فما كاد يشب حتى كانوا قد تفرقوا فى بيوت الزوجية ، ولكنه وجد العوض فى أبناء عمه سرور وأبناء الجيران ، كما وجد مراحه فى بيوت المتزوجين وعند آل عطا وآل داود . وكان أخلص المستمعين لأمه وأصدق التابعين لها فى أحلامها وجولاتها الروحية بين الجوامع والأضرحة . وكلما جمح به الخيال وجد عندها الأذن الصاغية والقلب المصدق ، ففى إحدى ليالى رمضان أخبرها أنه رأى ليلة القدر كطاقة من نور مشع انداحت لحظات فى السماء ، وأنه اطلع فى ليلة أخرى من وراء خصاص المشربية على زفة من العفاريت . ومنذ صباه وهو يتطلع إلى بنات الأسرة بحب استطلاع موسوم بشهوة مستوفزة قبل أوانها ، وحام بصفة خاصة حول دنانير وجميلة وبهيجة إلى بنات الجيران وفتياتهم ولم يعتق سيداتهم من رغباته الغامضة الآثمة ، مع تدين مبكر وصلاة وصيام .

ودخل الكتاب على رغمه وتلقى فيه المبادئ بقلب نفور وعقل متمرد ولم يستطع أبدا أن يفرق بين المدرسة وسجن قسم الجمالية الذى رأى الوجوه التعيسة تلوح وراء قضبان نافذته . ويسأله عمرو فى مجلس الليل بعد العشاء :

— ألا تريد أن تكون كأخويك ؟

فيقول بصراحة :

— كلا ..

فيقطب الرجل ويقول منذرا :

— لا تضطرنى إلى تغيير معاملتى لك ..

اهتزت صورة أبيه فى عينيه من عجز عن دفع الموت عن ابن أخته أحمد ، حين ترك لدموعه غير المجدية . يريد الآن أن ينعم بحضن جميلة رغم ما يعقبه من ألم يقبض على قلبه عندما يقبل على صلاته . دائما تعذب بين الحب والعبادة . وأعين الرقباء أيضا مثل بهيجة وأمه . بين الدجاج والأرانب والقطط فوق السطح ضبطتهما راضية مرة . لدى ظهورها انفك الاشتباك فطارت جميلة كالحمامة والدم ينبثق من وجنتيها من شدة الحياء . وقطبت راضية ، ثم أشارت بيدها المعروقة إلى السماء الحانية فوق السطح وقالت :

— من هناك يرى الله كل شىء ..

وتوارت جميلة عندما جاء ابن الحلال ، وألحق قاسم جرح الحب بجرح الموت ، وراح يراقب رءوس الأرانب المطلة من فوهة البلاص المقلوب . وسرعان ما وجد نفسه حيال أوهامه وجها لوجه ، ودروس المدرسة الثقيلة ، وابتسامة لا ترى بالعين المجردة آتية من عينى بهيجة الجميلتين .

وظن الأخت مثل أختها ولكنه وجد قلبا عذبا وإرادة صلبة . أى فائدة ترجى من ذلك الحوار الصامت ؟!. حتى ست زينب أمها قالت لها :

— إنكما متماثلان فى السن فهو غير مناسب ..

وقالت له راضية :

— المهم أن تشد حيلك فى المدرسة .. .

وبسط عمرو راحتيه داعيا :

— اللهم اجبر بخاطرى فى هذا الولد ..

ومن شدة الحصار بكى قاسم . كان بمجلس والديه الليلى فسأله أبوه عما يبكيه فقال :

— تذكرت أحمد !

فقطب عمرو وهتف :

— ذاك تاريخ قديم ، حتى أمه نسيته !

ومضى ينظر إلى الأشياء بحزن ويبكى . وقالت راضية لعمرو وهما منفردان :

— عين أصابت الولد .

فقال عمرو بغيظ :

— يحسدونه على خيبته !

وبخرته ، وجعل يتشمم الشذا الغامض ثم سقط مغشيا عليه . ومضى به أبوه إلى الطبيب فقرر أنها حالة صرع خفيف لا خوف منه ولكن يلزمه راحة وتغيير هواء . وتذكروا مأساة بدرية بنت سميرة . ونظر مرة إلى الفراغ بحضور والديه وقال :

— سأفعل جميع ما تريدون ..

وتساءل عمرو :

ــ أهو هذيان مرض ؟

فقالت راضية بيقين :

ــ بل هو اتصال بأهل الغيب ..

وعلم الأهل بحاله فتقاطروا على بيت القاضى يعودونه ، وحدجوه بنظرات مليئة بحب الاستطلاع والتوجس ، وجرى التهامس فى سراى آل عطا فقالت شكيرة لأمها :

ــ ما هو إلا عرق الجنون النابض من قديم فى أسرة راضية ..

وقالت مثل ذلك ست زينب لسرور فى بيتها . أما راضية فوكدت لعمرو علمها بتلك الحال وقالت له بثقة ويقين :

ــ لا تخف ولا تحزن وكن مع الله ..

ودارت بابنها على الأضرحة ، وحرقت البخور فى أركان البيت من بابه إلى سطحه . أما قاسم فهجر المدرسة باستهانة ، وراح يتجول فى الحوارى ، أو يطوف ببيوت إخوته وأخواته وأقربائه فى ميدان خيرت وشارع السرايات وبين الجناين ، وفى كل موقع يتناول المشروبات وينثر كلماته الغامضة تنبئا عن المستقبل كما يتراءى له ، وتجىء الحوادث مصدقة لنبوءاته حتى عرف بينهم بالشيخ ولم يعد أحد منهم يجرؤ على السخرية منه .

وقال محمود بك عطا لعمرو المحزون :

ــ إنها مشيئة الله ، وأنت رجل مؤمن ، والولد فيه سر لا يعلمه إلا الله ، إنه يقرأ خواطرى حتى بت أعمل له ألف حساب ..

فتساءل عمرو :

ــ ولكن مستقبله ورزقه ؟

فقالت خالته شهيرة وكانت حاضرة :

ــ الله لا ينسى مخلوقا من مخلوقاته فما بالكم بواحد من أوليائه ؟

والواقع أن سمعته انتشرت فى صورة أساطير فأخذ يقصده أصحاب الآمال المعذبة محملين بالهدايا ثم النقود ، حتى اضطرت الأسرة لإعداد حجرة المعيشة بالدور الأول لاستقبال زواره ، وحتى ذهل عمرو عندما وجد رزقه ينمو ويفوق رزق أخويه مجتمعين . وتلاشت مشكلته بحكم العادة ، وكأنما خلق لهذه الولاية ، وبدل قاسم بملابسه الإفرنجية الجلباب والعباءة والعمامة ، وأرسل لحيته ، وقسم وقته بين استقبال زواره وبين العبادة فوق السطح ، وحتى أمه ــ الأستاذة العريقة ــ أصبحت من تلامذته ومريديه . وفتح صدره لأحزان أسرته وانغمس فى مآسيهم ، وشيع أمواتهم ، وصلى عليهم فى جوف مقابرهم . وذات يوم وكان قد بلغ الثلاثين من عمره خفق قلبه خفقة أعادت إليه ذكريات قديمة مبللة بماء الورد ، وناداه صوت ناعم للخروج من بيته فاشتمل بعباءته وخرج ، ومن توه توجه نحو بيت عمه المجاور . واستقبلته بهيجة بذهول وهى تسائل نفسها عما جعله يقتحم وحدتها اليائسة . راحا يتبادلان النظرات كالأيام الخالية ، ثم قال :

ــ رأيتك فى المنام تلوحين لى ..

فابتسمت ابتسامة باهتة لا معنى لها فقال :

ــ وقال لى هاتف من الغيب آن لكما أن تتزوجا ..

وقام من فوره فغادر البيت راجعا إلى بيته وقال لأمه :

ــ أريد أن أتزوج فاخطبى لى بهيجة ..

وقالت راضية لنفسها إن جميع الأولياء تزوجوا وأنجبوا . وعندما جاء

لبيب لزيارتها أبلغته بالخبر . وشاور لبيب ابنى عمه عامر وحامد فاتفق الرأى على أن قاسم قادر على القيام بأعباء أسرة ولكن الأمر رهن بموافقة بهيجة . والعجيب أن بهيجة وافقت . قيل إنه اليأس وقيل إنه الحب القديم ، ومهما يكن من أمر فقد زفت إليه بعد أن تجدد البيت القديم بالأثاث الجديد . وتم الزفاف فيما يشبه الصمت بسبب الإظلام المخيم فى فترة الحرب . واحتفلت به المدافع المضادة للطيارات . ومضت سنوات عقم ثم أنجبت بهيجة ابنها الوحيد النقشبندى الذى شابه فى جماله خاله لبيب . وكان كامل الصحة والذكاء فتخرج مهندسا فى عام النكسة . وأرسل قبيل السبعينات فى بعثة إلى ألمانيا الغربية ، وكانت حال البلد قد أرهقت صحته النفسية فقرر الهجرة ، والتحق بعمل هام فى مصنع صلب بعد حصوله على الدكتوراه ، وتزوج من ألمانية واستقر هناك بصفة نهائية . وحزنت بهيجة لذلك حزنا شديدا أما قاسم فلم يكن يحزن لشىء .. وودعه قلبه بغير دموع ..

« قدرى عامر عمرو »

ولد ونشأ فى بيت بين الجناين وهو الابن الأوسط لعامر وعفت . من صغره كان شعلة فى اللعب والجد والخيال . ومن صغره أيضا أولع بالاطلاع والاهتمام بالحياة العامة بخلاف أخويه ، ثم وجد نفسه فى اليسارية . وعشق الفن والأدب رغم موهبته العلمية ووضع حجر الأساس فى مكتبته الخاصة وهو فى أولى سنى الدراسة الثانوية . وكاد يكون صورة من أبيه غير أنه كان أفرع طولا وأقوى بنيانا ، إلى طبيعة إيجابية ضاربة جرت عليه المتاعب . وكم كانت دهشة عامر كبيرة عندما قبض على ابنه ضمن نفر من اليساريين . وهرع الرجل إلى حميه عبد العظيم باشا فسعى الرجل إلى الإفراج عنه بحجة حداثته ولكن الباشا ذهل وقال لعامر وعفت :

ـ كيف تكوّن هذا الولد فى بيتكما ؟

فقال عامر فى حياء :

ـ نحن لا نقصر فى تربيتهم ولكن الآخرين يتسللون إلى حياتهم فيفسدونها ..

ودخل قدرى كلية الهندسة وهو مسجل فى الصفحة السوداء فى جهاز الأمن . ونبه حليم أخته إلى خطورة الوضع على مستقبله ، وهذا ما فعله حامد مع شقيقه عامر . وتكرر اعتقاله والإفراج عنه وهو طالب فى الهندسة . وانجذب ذات يوم إلى شاذلى ابن عمته مطرية لجامع الثقافة بينهما ولكنه وجده بلا أدريته وصوفيته العقلية نقيضا له فضاق به

وهجره . ولما تخرج مهندسا تجنب التوظف فى الحكومة ، فاشتغل فى مكتب هندسى لأحد أساتذته المحالين على المعاش . وكان مهندسا كفئا ولكنه سيئ السمعة من الناحية السياسية . وأرادت أمه أن تزوجه ليستقيم أمره من ناحية وليعوضها عن خسارتها فى شاكر ، ورحب من ناحيته بالفكرة . وأرادت أن تزوجه من إحدى بنات خاله لطفى باشا ولكنها لم تلق الحماس الذى حلمت به وحدست ما وراء ذلك من سمعته السياسية . وتضاعف همها عندما رفضه جيران لها لشكهم فى إسلامه وبالتالى فى بطلان الزواج ! . وغضب قدرى على فكرة الزواج كغضبه على البورجوازية بعامة ، وآمن بحكمة خاليه غسان وحليم فى إضرابهما عن الزواج . ولما قامت ثورة يوليو كان قد كف عن نشاطه العملى فى السياسة ولكن ظل مبقيا على اعتقاده وأصدقائه فلم تتبدد من حوله عتمة السمعة . وتقدم فى عمله تقدما ملموسا ومبشرا بالمزيد ، ولكنه اعتقل للمرة الثالثة ، واستنجد أبوه ببعض كبار الضباط من تلاميذه السابقين فأكرموه بالإفراج عنه . ومنذ ارتبطت الثورة بالكتلة الشرقية مال إليها ومضى يرى فى خطاها ما لم يكن يراه من قبل . ولعل ذلك مما هون عليه بعض الشىء مصاب الوطن فى ٥ يونيه باعتباره كان مدخلا حاسما لترسيخ النفوذ السوفييتى فى مصر ومقربا إلى الثورة الشاملة حين تنضج أسبابها . ولعل ذلك ما جعله يستقبل نصر ٦ أكتوبر بسخط لم يستطع أن يخفيه ، وبذله أقصى ما عنده من منطق ومعلومات ليفرغه من مضمونه أو تصويره فى صورة التمثيلية المفتعلة ، وقال لنفسه :

ـ انتصار البورجوازية يعنى انتصار الرجعية !

ومن أجل ذلك ناصب السادات العداء منذ تجلى للعين خطه السياسى

وأضمر له الكره حيا وقتيلا ، رغم إقبال الثراء عليه بغير حساب فى عصر انفتاحه . وقد اعتقل فى طوفان سبتمبر ١٩٨١ ، وأفرج عنه مع الجميع ليواصل عمله الناجح وآماله الحبيسة ، وكان ذلك قبل وفاة أبيه بأيام ..

« حرف اللام »

« لبيب سرور عزيز »

هو بكرى ذرية سرور وزينب ، طالع الدنيا بوجه مليح مشرق شبيه بوجه أمه وقامة دون المتوسط فى الطول رقيقة البنيان كأنما أعدت لتلقى أنوثة عذراء . ومن عجب أنه طبع منذ طفولته على الهدوء والرزانة وكأنما ولد بالغ الرشد . ولم يجاوز لعبه الوقوف أمام باب البيت ليشاهد الأشياء أو يتابع تحركات ابن عمه قاسم ـ الذى يصغره بسنوات ـ وهو يتعفرت كأمثاله ، أو يتمشى فى الميدان وهو يقزقز اللب . وكانت راضية تناديه فتقول بمحبة :

ـ يا صاحب العقل الكامل .

وكانت تقول عنه أيضا :

ـ أبوه موفور الحظ من الحماقة وأمه عبيطة فمن أين له هذا العقل !!

وفى الرابعة من عمره أرسله سرور أفندى إلى الكتاب متشجعا برزانته وإعراضه عن شقاوة الأطفال ، ورأى أنه لن يخسر زمنا إذا انقضى عام أو عامان قبل أن يستطيع الاستيعاب والإدراك ، ولكنه حصل فى العامين معرفة حازت رضى سيدنا الشيخ فقال لعمه عمرو أفندى :

— ابن أخيك لبيب ولد عجيب وعليكم أن تدخلوه المدرسة الابتدائية ..

لم يكن أحد يقترب من المدرسة الابتدائية فى ذلك الوقت دون الثامنة أو التاسعة فقدم له أبوه فى امتحان القبول بلا اكتراث جدى ، وجاء نجاحه مفاجأة ، وانتظم فى الدراسة وهو ابن ست سنوات . ومضى ينجح عاما بعد عام محدثا فى محيط الأسرة دهشة ، والأعجب من ذلك أنه واظب على المذاكرة بلا حض أو إغراء ، وبلا مساعدة من أحد ، حتى حصل على الابتدائية وهو ابن عشر . وأهّله سنُّه وتفوقه لدخول إحدى مدارس الخاصة الملكية بالمجان . وشق طريقه فى المدرسة الثانوية كالعهد به ، ولما ناهز الحلم صد عن أى إغراء جاءه من أركان الأسرة أو الطريق ، مطاوعا تحذيرات أمه ، منصرفا بإرادته عما يعيق اجتهاده واستقامته ، حتى حصل على البكالوريا وهو ابن ست عشرة . وكانت المعلمين العليا هى المدرسة المفضلة والمناسبة لظروف الأسرة ، ولكن الفتى الطموح أعلن عن رغبته فى الالتحاق بمدرسة الحقوق . وتمتم سرور وهو بين الخوف والرجاء :

— إنها مدرسة الحكام !

وقال عمرو :

— نشاور عبد العظيم ..

وكان الباشا معجبا بسيرة الفتى فسعى لإلحاقه بالمدرسة وبالمجان أيضا . وفصل له أبوه بدلة ذات بنطلون طويل لأول مرة ، وذهب إلى المدرسة لتحدق به الأعين بدهشة ، وتحوم من حوله التعليقات الساخرة عن « مدرسة الحقوق الأولية » و« روضة الأطفال الملكية » ولم تتغير النظرة نحوه حتى أثبت تفوقه وقدراته . بل لم يتأخر عن الاشتراك فى

المظاهرات لما اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات وإن جرى تحركه غالبا فى الظل والأمان . ولم يغب عنه شىء من الفوارق الطبقية بينه وبين أقرانه ، وخلفت رواسب فى النفس ولكنه تجاوزها بهدوء طبعه وحكمته الفطرية . لم يغتم لبدلته الوحيدة ، وعدم مشاركته فى أى حياة اجتماعية أو ترفيهية أو لركوبه الدرجة الثانية فى الترام ، وتجنب إزعاج أبيه بأى مطلب يتحدى قدراته ، كان دائما صاحب العقل الكامل كما قالت راضية . وجنى من صبره واجتهاده الثمرة فحصل على الليسانس وهو ابن ثمانى عشرة معدودا بين العشرة الأوائل . ولم تعترض النيابة على قبوله بسبب الأصل إكراما لعبد العظيم داود ، ولكنها أبت تعيين معاون نيابة قاصرا !. فاتفق على إلحاقه بوظيفة كتابية فى محكمة حتى يبلغ سن الرشد . والتحق بعد ذلك بالنيابة رافعا رأس آل عزيز ، وظافرا لهم بمركز فى البيروقراطية العالية ، فى مواجهة آل داود وآل عطا ، ومحدثا فى الوقت نفسه انفعالات من الغيرة والحسد والإعجاب فى فروع الأسرة جميعا حتى أقرب الناس إليه وهم أبناء عمه . وشمخ سرور أفندى برأسه عاليا كأنما أصبح النائب العمومى ، فازداد لسانه حدة ، وأثره سوءا فى أنفس الآخرين ، وبات ثقيلا لا يطاق ، وبخلاف المظنون والمنطقى هبت على لبيب رياح الهموم . أجل أثبت دائما كفاءة ونزاهة كوكيل نيابة وقاض فحاز الثقة والاحترام ، ولكن ظروف أسرته حتمت عليه تأجيل الزواج حتى يعاون فى تربية إخوته وتزويج أخواته . من ناحية أخرى انطلقت غرائزه المكبوحة لتستعيض عما فاتها فى الطفولة والصبا والمراهقة ، وإذا به يولع بالخمر والنساء ، فيمارس العربدة والفسق مع المحافظة على تقاليد مهنته ما وسعة ذلك . وألف تلك الحياة حتى عشقها لذاتها ، ولم يفكر فى

تغيرها لما فرغ من واجباته العائلية ، على تهديدها لسمعته وإنهاكها لصحته . ولما قامت ثورة يوليو ، واهتز مركز القانون ورجاله ، غزته الكآبة كوفدى قديم من ناحية وكرجل من رجال القانون من ناحية أخرى . ولم ينقطع أبدا عن زيارة أسرته فى جميع فروعها ، وراح يتابع أثر الثورة فيها مع الحرص التام فى الإفصاح عن ذاته . وربما كان حامد ابن عمه أقربهم لنفسه فهمس له مرة :

— ما الحيلة ؟.. أمامنا رجل يدعى الزعامة وبيده مسدس !

ولما رقى إلى رياسة محكمة استئناف الإسكندرية وقارب سنه المعاش تفجر تغيير فى داخله فى صورة طفرة عارمة فاندفع بكل قواه فى طريق العبادة والزواج . مارس العبادة لحد الدروشة ، وفكر أول ما فكر فى الزواج من دنانير بنت عمته . لم ينس أنه حاول يوما فى غيه أن يرافقها لولا رفضها الحاسم له ، ولكن منظرها الذى آلت إليه أثار نفوره . فاتجه نحو امرأة من بنات الهوى عرفها مطربة من الدرجة الرابعة بملهى ليلى على عهد الشباب . ولم يقطع صلته بها على كثرة من تقلب فى حبهن من النساء . وكانت فى ذلك الوقت قد كفت عن الحرفة لكبر سنها ولكنها لم تعطل تماما من الأنوثة . وسرعان ما تزوجا ، وأقاما بشقة أنيقة بمصر الجديدة . وأديا معا فريضة الحج ، وعاشا معا فى سلام زهاء عام . وكانت الخَمر قد استهلكت كبده فأصابه نزيف داخلى وهو يرأس المحكمة . وحمل من الإسكندرية إلى بيته فى القاهرة حيث أسلم الروح . وغادر الحياة ومصر فى عز مجدها الناصرى قبيل هزيمة يونية بأشهر .

« لطفى عبد العظيم داود »

هو بكرى عبد العظيم داود وفريدة حسام . كان فى الجمال صورة من أمه وشقيقته فهيمة كما حظى بذكاء أبيه وجده داود . وفى صباه ومراهقته توثقت أسباب المودة بينه وبين آل عمرو وخاصة عامر ، كما هام بالحى العتيق وأطوار راضية الغريبة الخارقة للمألوف . وفتنه جمال مطرية كما فتنها جماله ، فنشأت قصة حب حييَّة فى تقاليد ذلك الزمان . وتفتحت القلوب وربت لاستقبال أمطار الأنباء السعيدة . ولكن ما كاد لطفى يشير من بعيد إلى رغائبه حتى كأنه فجر قنبلة فى فيللا آل داود بشارع السرايات . تناسوا القربى ، وحب عامر وعفت ، وأخوة عمرو وعبد العظيم ، واعتبروا الإشارة زلة ذوق ضل الهدى وتردى فى هاوية الانحطاط . وحوصر لطفى حتى خطبت مطرية وتلاشى الخطر . وغضبت راضية وصبت لعناتها على من لا أصل لهم ، وتوجع قلب عمرو واحتقن وجهه بالدم . وحرض سرور أخاه قائلا :

— ما ينبغى لغضبك أن ينطفئ ..

غير أن صداقة فريدة حسام تكفلت براضية ، وأحسن عمرو — كالعادة — الحوار مع انفعالاته.وغلبت رابطة الأسرة طوارئ نزواتها . ما أكثر ما يقول بنات داود فى بنات عمرو وسرور وما أكثر ما يقول بنات عمرو وسرور فى بنات داود ، وما أفظع ما يتهكم به آل داود على آل عطا وما أقسى ما يتندر به آل عطا على آل داود ، ولكن متانة الأساس كانت تصمد للزوابع والأعاصير التى تهب على البيت الكبير . وفى تلك

الأيام الغربية كان الحب ينسى فى مواعيده المعقولة . وسرعان ما انشغل لطفى بدراسة الطب حتى حصل على إجازته . وسافر فى بعثة إلى ألمانيا ثم رجع ليستهل حياته العلمية الفريدة فى وزارة الصحة . وأثبت نبوغه فى الإدارة والعلم ، وظفر بمكانة مرموقة بين الأحزاب المتخاصمة رغم انتماء أسرته المعروف ، ولكنه كان أدنى إلى الاستقلال منه إلى الحزبية ، ولم يتردد فى إعلان ولائه للعرش كموظف كبير أمين ، وبذلك ظفر بالبكوية ثم الباشوية وهو ما بين الشباب والكهولة . وقد لعب عمرو دورا تاريخيا فى تزويج لطفى . ذلك أنه كان صديق صبا لرجل أصبح رئيسا للقومسيون الطبى هو بهجت بك عمر . ورأى كريمته آمال خريجة الميردى دييه وذات الجمال الفريد ، فخطر له انسياقا مع طبيعته الدمثة وحرصه على كسب القلوب أن يخطبها للطفى فسعى سعيه الجميل بين آل عبد العظيم وآل بهجت . وتمت على يديه زيجة من أسعد الزيجات ، وأصبح بها صاحب الفضل المعترف به فى الأسرتين . ونشأت الأسرة الجديدة فى فيللا بالدقى . ولم تتردد تلك الأسرة المصرو-أوربية عند زيارة منشئها عمرو أفندى فى بيته العتيق بميدان بيت القاضى . وفتنت آمال بالحى العريق وبراضية . وأضافت إلى زوار البيت الكبراء أمثال آل عطا وداود وآل بليغ معاوية وردة جديدة فواحة بعبير إفرنجى وسحر من نوع جديد فتن الأهل والجيران بمثل الجذبة الصوفية ، وقد أنجبت له فريدة وميرفت وداود ، وعاشوا — عقب المراهقة — فى الخارج فريدة وميرفت زوجتين لرجلين فى السلك السياسى ، وداود طبيبا فى سويسرا وتزوج من سويسرية . ولما قامت ثورة يوليو كان لطفى من القلة التى لم يمسها سوء من طبقته حتى أحيل إلى المعاش وهو وكيل وزارة . ولكنه خسر جُلّ مدخراته الموظفة

فى أسهم وسندات عند التأميم ، وقد توفى عقب وفاة أبيه فى السبعين بسرطان المعدة ، وهى سن تعتبر من الشباب فى أسرة عبد العظيم المعمرة ..

« حرف الميم »

« مازن أحمد عطا المراكيبى »

أعذب من الورود التى تتلألأ فى الحديقة الكبيرة بسراى آل المراكيبى . ازدهرت فى شخصه دماثة أبيه أحمد بك وجمال أمه فوزية هانم . وكان من أحب الشخصيات إلى قلوب آل عمرو بل وسرور وداود . ومنذ صباه أحب ابنة عمه نادرة وأحبته . ولذلك كان أشقى الناس جميعا بالخلاف الذى مزق الأسرة ، وتعرض لذلك إلى غضب شقيقه عدنان مفجر الثورة . وكان متعثر الخطوات فى دراسته ، ولكنه اختار الزراعة ليستثمر دراسته فى حياته العملية كى لا تتكرر المأساة مرة أخرى فى المستقبل . ورغم حداثة سنه النسبية سعى سرًّا لدى قريبه عمرو أفندى ليبارك محاولاته للتوفيق بين الشقيقين الغاضبين ، وحث خفية حبيبة وابنة عمه على حفظ حبهما بمنجاة من العاصفة حتى تهدأ . ولما مرض أبوه الطيب مرض الوفاة وانقشعت غيوم الأحزان لم يمنعه الحزن على أبيه من الترحيب القلبى بعودة السلام إلى أركان الأسرة . وقرر أن يعلن خطبته عقب انقضاء عام الحداد ، وكان يطوى العام الأخير من دراسته . وفى مطلع الربيع سافر مع بعثة من الطلبة إلى الإسكندرية فى رحلة

دراسية ، وخطر له أن يستحم فى الشاطبى مع بعض الصحاب ، فخانه الموج فغرق . حقا لقد أحدث موته هزة عنيفة فى الأسرة ولكنه ترك فى أعماق نادرة جرحا لم يقدر له أن يندمل أبدا . وورثه عدنان ، وصار بذلك أثرى آل عطا ، ولكنه كان أيضا الوحيد الذى طبق عليه قانون الإصلاح الزراعى بعد قيام ثورة يوليو ..

« ماهر محمود عطا المراكيبى »

ولد ونشأ فى سراى ميدان خيرت ، وكإخوته تلقى التربية الجادة والرفيعة معا . وكان طويلا رشيقا وسيما وذا كبرياء طبقى ملموس . ولم يكن يزور أهله إلا فى المناسبات ، وتجنب آل داود بصفة خاصة . ولم تكن حياته الدراسية تبشر بخير فاختار الكلية الحربية هدفا لحياته التعليمية . وشغف بالحياة الأرستقراطية فى جميع مظاهرها من إيثار العرش على الأحزاب ، ومصادقة أبناء طبقته ، واستثمار جماله فى عشق الغوانى . وأزعج أباه بمطالبه المالية ، وكان محمود بك يحب أن ينشئ أبناءه على الانضباط من غير حرمان ، فأزعجه ذلك الابن الخارج عن الخط المرسوم . وفى الوقت نفسه كان يحبه ويعجب به فتغافل عن تحيز زوجته له وإسعافه بما يحتاج إليه ، وكان الكبر قد ألان عريكته ، وكذلك المرض . والتحق ماهر بالكلية الحربية وتخرج فى مطلع الحرب العالمية الثانية ، وبحكم الصلات الشخصية وبتأثير شقيقه عبده انتظم فى سلك الضباط الأحرار مرتكزا إلى عواطف سطحية وغير مؤمن إيمانا جديا بما يقال عن آلام الشعب وصراع الطبقات . ولما قامت الثورة وجد نفسه من

المقربين ، ووثب دون عناء إلى منزلة لم يستطع أن يبلغها بخطواته الدراسية المتعثرة . ولم يكن مقتنعا بقانون الإصلاح الزراعى رغم أنه لم يطبق فى أسرته إلا على ابن عمه عدنان ولكن مجال الطموح انفسح أمامه إلى آفاق غير محدودة . واستأجر شقة فى الزمالك لغرامياته ، وعلا نجمه فعين فى الحرس الخاص للزعيم . وظل فى مكانه بعد النكسة وحتى وفاة عبد الناصر . وأحيل إلى المعاش بعد ذلك بقليل فتفرغ لشقة الزمالك ، وطيلة ذلك العمر لم يكن الزواج يخطر على باله قط . ولما هلت طلائع الانفتاح أقنعه بعض الأصحاب بالعمل فى الاستيراد فباع أرضه وانهمك فى عمله الجديد وأثرى من ورائه إثراء عظيما . وجمعت السراى عبده وماهر ونادرة على عقم من ناحية الذرية ، ومال بتدفق وكأنما يعدونه للآخرين ..

« محمود عطا المراكيبى »

أول ثمرة لزواج عطا المراكيبى من الأرملة الثرية هدى الألوزى . ولد ونشأ وترعرع فى أحضان العز والفخامة ما بين سراى ميدان خيرت وسراى العزبة فى بنى سويف ، ودون أن يعلم شيئا عن حياة أبيه الأولى . ولكنه خالط أقاربه ــ أخته نعمة وذريتها رشوانة وعمرو وسرور ــ منذ سنية الأولى وتشرب قلبه بحب الحى العتيق . ومنذ نشأته وضحت معالم شخصيته الإيجابية القوية وزادت معالمها بروزا بالمقارنة بشخصية أخيه الأصغر أحمد الوديعة الدمثة . غير أنهما فى التعليم كانا على مستوى واحد لا يبشر بالاستمرار ، فاكتفيا كابنى أختهما عمرو وسرور بالابتدائية ، ثم

ركن أحمد إلى حياة أبناء الذوات على حين لازم محمود أباه ، تلميذا فطنا ومريدا صادقا ومساعدا قويا . وتجلى بنيانه مثالا للقوة والفظاظة بقوامه الربعة ووجهه الغليظ حسن القسمات ورأسه الكبير القائم على عنق قصير ملىء ، وشفت هيئته ونظراته المقتحمة ومتانة هيكله عن التحدى والصراع والبطش . ولم يجد أبوه ما يؤاخذه عليه فى شبابه الأول سوى نزوات مما يجرى فى الحقول ، فخطب له ولأخيه شقيقتين مهذبتين من آل بكرى جيرانه ، فبدأ محمود حياته الزوجية الموفقة مع نازلى هانم ، ولم تنحرف عينه إلى امرأة أخرى طوال حياته ، ونجحت الحياة الزوجية بفضل تعلقه بالهانم ، وبفضل تربية المرأة الرفيعة وتقديسها التقليدى للزوج والحياة الزوجية ، وأنجبت له مع الزمن حسن وشكيرة وعبده ونادرة وماهر . ومن بادىء الأمر وبدهاء فريد قرر محمود الاستحواذ على قلب أبيه . عرف فيه البخل فمثل بين يديه دور البخيل وإن كان فى ذلك معتدلا لا هو بالبخيل ولا بالكريم . أما فى العمل فقد حاز إعجابه بمثابرته ودقته وحسن تقديره مع مغالاة فى العنف فى معاملة الآخرين ورفض التساهل كأنما هو جريمة أو خيانة . وأبوه نفسه كان يساوره الجبن أحيانا فيقول له :

— من الحكمة أيضا ألا نخلق لنا عدوا كل يوم ..

فيقول الابن :

— الجميع يحبون أخى أحمد ، لا أهمية للحب ، وبالقوة وحدها تصان الحقوق .

حتى قال عطا مرة :

— لقد أنجبت رجلا واحدا وامرأتين !

لم يبال محمود بكثرة الأعداء وتصاعد أعدادهم ، وآثر دائما أن

يكون مرهوبا على أن يكون محبوبا سواء لدى الموظفين أم المتعاملين ، ولا ضجر يوما من رفع القضايا والتردد على المحاكم بصحبة المحامين . ولما مات الأب عطا خلا محمود إلى أخيه أحمد بحضور أمهما وقال له :

— أصبح من حقك أن تدير نصف الأملاك .

فارتبك أحمد وبانت الحيرة فى عينيه فقال محمود :

— إنه صراع فى غابة من الوحوش ، وحظ الطيب فيها الضياع ..

فازداد أحمد حيرة وارتباكا فقال الآخر :

— أتوافق على أن أقوم بالعمل وحدى ؟

— بكل ارتياح ، أنت أخى الأكبر وحبيبى وما عرفنا فى حياتنا إلا الحب ..

— وأيضا فإنى لم أهمل فريضة فى حياتى ، وأعمل وكأن الله يرانى ..

فقال أحمد وهو يتنهد فى ارتياح :

— ما فى ذلك شك عندى ..

هكذا حل محمود محل عطا ، وكان يوما أسود فى حياة الموظفين والخفراء والمتعاملين . كان يمضى فى الحقل أو الدائرة أو السوق مثل وابور الزلط ، والأعين ترمقه بالحقد والدعوات تنهال عليه من الرجال والنساء . وذات ليلة وهو راجع إلى السراى انقض عليه مجهولان بهراواتهم حتى تهاوى فاقد الوعى ثم قذفوه فى مصرف وتلاشوا فى الظلام . ومرت دورية على أثر ذلك فتهادى إلى مسامعها أنين من المصرف فهرعت إليه وأنقذته وهو على شفا الموت . ونقل إلى المستشفى ، وكلما سمع سامع بالخبر ضرب جبينه غيظا ولعن سوء الحظ الذى بادر إلى إنقاذه فى اللحظة الحرجة . وغادر المستشفى صحيحا معافى ، بإضافات جديدة

من الكدمات وآثار الجراحة فى الجبين والخد والعنق ضاعفت من جهامة منظره ووحشية طلعته ، ولكنها لم تغير من طبعه شيئا وإن زادته تسلحا وحذرا . وقال له ابن أخته عمرو أفندى وكان أحب الناس إلى قلبه :

— لابد من سياسة جديدة يا حبيبى ..

فقال محمود :

— الناس لم يخلقوا إلا لسياسة واحدة والويل للمتراجع !

وكان يزور بيت القاضى فى حنطوره الفخيم محملا بالهدايا ، ويطيب له الحديث مع عمرو وراضية ، ثم يستغرقه الحديث عن قضاياه التى لا حصر لها . ومرة قال له عمرو ضاحكا :

— ستصبح من فقهاء القانون مثل عبد العظيم !

فيضحك — وكان يكثر من الضحك فى بيت القاضى — ويقول :

— الموت أهون من التفريط فى الحقوق ..

فتقول راضية بحماسها المندفع :

— ولكن الدنيا لا تساوى هذا التعب ..

فيقول مقهقها :

— ما خلقنا إلا للتعب يادرويشة !

وكان يزور عبد العظيم داود فى العباسية الشرقية ، ويسعد بأخباره عن نجاحه وأمواله ، ويناقشه فى القضايا ، وكان عبد العظيم يقول لفريدة عقب انصرافه :

— المرض أحب إلىّ من لقاء هذا الجلف ..

فتقول فريدة هانم :

— امرأته جوهرة ثمينة ..

فيقول ساخرا :

— ربنا يصبرها على ما بلاها !

ولم تقصر نازلى التى تحبه أكثر من أى شىء فى دنياها فى نصحه بالاعتدال ولكن شيئا لم يكن يثنيه عن خطه أبدا . وسألته أيضا :

— ألا يمكن أن ينفعك عبد العظيم داود فى قضاياك ؟

فقال ممتعضا :

— إنه يتظاهر بالنزاهة ليدارى نذالته وانعدام مروءته ، وما هو إلا كافر ومقلد للإنجليز فيشرب الويسكى مع الغداء والعشاء !

ولما قامت ثورة ١٩١٩ تحرك قلبه بعاطفة جديدة لأول مرة ، ومسه سحر الزعيم ، وتبرع ببضعة آلاف من الجنيهات ، ولأول مرة أيضا يلمس فى الفلاحين البسطاء قوة مخيفة لم يعهدها من قبل . ولما حصل الخلاف ، وتبين أن للعرش موقفه ، وللعدليين موقفهم ، وللزعيم موقفه ، أخذ يعيد حساباته . واجتمع بأخيه فى سراى ميدان خيرت ، وسأله :

— ما رأيك فيما يجرى اليوم ؟

فقال أحمد ببراءة :

— لا شك أن سعد على حق ..

فقال ببرود :

— إنى أسأل عن مصلحتنا ..

فقال أحمد بحيرة :

— لم أفكر فى ذلك ، هل تفكر فى تأييد عدلى باشا ؟

— المركز الثابت هو العرش ..

فقال أحمد ببساطة :

— دائما الحق معك يا أخى ..

— ماذا يقول أصحابك من السمّار ؟

— كلهم سعديون .

— أعلن انتماءك كى يعرف على أوسع نطاق ..

— وأولاد أختنا عمرو وسرور مع سعد أيضا ..

— هؤلاء لا مصالح لهم ، لقد انتهت اللعبة ، فلا تتصور أن الإنجليز سيغادرون مصر ولا تتصور أن مصر تستطيع أن تعيش بغير الإنجليز ..

وجزاء ولائه للعرش فاز هو وأخوه برتبة البيكوية ، وقال لأخيه :

— كى يسلم آل داود أن الرتب ليست قاصرة عليهم ..

غير أن ثورة من نوع آخر اندلعت فى الأسرة وكان قائدها عدنان ابن أخيه . وانشقت الأسرة نصفين متخاصمين ، رجالا ونساء ، وشمت بها المتنافسون ، كما حزن لها المحبون مثل عمرو ورشوانة . حتى سرور قال :

— حلت اللعنة بالأسرة الملعونة ..

ولم يجتمع لها شمل إلا عند وفاة أحمد . وعقب وفاته بأشهر استفحل مرض السكر بمحمود ، وكان عمرو وسرور قد رحلا عن الدنيا ، فحلت بقلبه كآبة ضاعفت من تأثير المرض ، ووهنت عزيمته ، وزهد فى العمل ، وأقام أكثر وقته فى سراى ميدان خيرت حتى وافته أزمة قلبية ذات صباح فأسلم الروح . ولحقت به نازلى هانم بعد عامين ، وفى نفس عام وفاتها توفيت فوزية هانم . ولم يبق من ذلك الجيل إلا المعمرون مثل راضية وعبد العظيم باشا وبليغ معاوية وهم الذين امتد بهم العمر حتى قيام ثورة يوليو ..

« مطرية عمرو عزيز »

ولدت ونشأت فى بيت القاضى وهى الثالثة فى ذرية عمرو وراضية . وكانت أشبه الجميع بخالتها المنتحرة صديقة فى جمال وجهها ورشاقة قدها وعذوبتها . وكانت أجمل الأخوات بل لعلها كانت أجمل بنات الأسرة جميعا ، ومع أنها ترعرعت فى عبير الدين والدروشة إلا أن السر لم ينفذ إلى أعماقها ، واعتقدت أن حب الله ورسوله يعفيها من أداء الفرائض . وكان تفوقها فى الجمال يحرك الغيرة فى قلوب أخواتها ثم حل الرثاء محل الغيرة مع تقلبات الزمن . وعرفت فى صباها ومطلع شبابها بالظرف والمرح وحب الناس والقدرة على كسب محبتهم فلم ينج من سحرها امرأة أو فتاة من آل سرور وعطا وعبد العظيم . أجل لم يشفع لها ذلك كله عندما أغرى سحرها شابا مثل لطفى عبد العظيم بالتفكير فى الزواج منها ، ذلك أن السحر نفسه له حدود فى الوجدان الطبقى . بذلك تحولت أول تجربة سعيدة فى حياتها إلى محنة عاطفية ذبحت قلبها الطرى وأدمتِ كبرياءها . وهون من آلامها وقدة الغضب التى اندلعت من حولها دفاعا عنها وعن الأسرة . وهوّن منه أيضا أن الحب لم يكن حظى بالاعتراف بعد ، فدارت المعركة حول الكبرياء وحدها ، وهمدت فى هاوية التقاليد العريقة . وما لبثت أن خطبتها صديقة لأمها ، تم تعارفهما فى ضريح سيدى يحيى بن عقب ، وتفاءلت بالتعارف ومكانه ، وحكمت بالطيبة على المرأة التى كانت تقيم غير بعيد فى حارة الوطاويط . وكان العريس — محمد إبراهيم — مدرسا بمدرسة أم الغلام ، فهو من ناحيتى الشهادة والمهنة مثل

عامر ، ورأته مطرية من وراء خصاص المشربية فأعجبها وجهه القمحى وجسمه الملىء والغليون الذى يدخنه كالإنجليز !. وزفت إليه فى البيت الذى تملكه أمه بحارة الوطاويط ، وكان من حسن الطالع أن كسبت مطرية قلب حماتها ، ونعمت بحب صادق جمع بينها وبين زوجها حتى آخر يوم من حياته . وأشرقت أعوام متلاحقة بالهناءة والوفاق ، وأنجبت فيها مطرية أحمد وشاذلى وأمانة ، وكان ثلاثتهم كالأقمار فى الوضاءة والوسامة ، وحق لكل إنسان أن يعد بيت حارة الوطاويط من البيوت السعيدة بكل معنى الكلمة . وكان محمد إبراهيم ثانى رجل ينضم إلى آل عمرو بعد حمادة القناوى ، ولكنه كان مهذبا دمث الأخلاق ومربيا مثقفا ذا مكتبة متنوعة المصادر ، وشتان بين حديثه المنضبط وثرثرة حمادة وخيلائه القائمة على غير أساس . ولم يستطع محمد إبراهيم أن يتخذ من حمادة صديقا حقيقيا ، وجامله كثيرا إكراما لصدرية التى حظيت بإعجابه ولم تخف عن فطنته مزاياها كست بيت . تلك الأعوام السعيدة خلدت فى وجدان مطرية بتفاصيل حياتها اليومية ، بدفء عواطف الزوج وحنان أمه وتسامحها وبريق الأبناء المبشر بالنور والانبهار . وتلقت بعد ذلك أول ضربة من ضربات القدر بوفاة أحمد وهو فى الخامسة ، جربت عذاب الأم الثكلى وحزنها العميق ، وانبسط القبر أمام عينيها الدامعتين فى هالة من العواطف الجديدة بعد أن سكنه جزء من قلبها النابض ونفحة من خيالها المحروم . وتضاعف حبها لقاسم بعد أن تجلى حزنا لا يتعزى عن فقد الراحل الصغير . وتحولت أمومتها الجريحة إلى شاذلى وأمانة . ولكن قلبها لم يسعد السعادة المأمولة بزواجهما . ورحلت حماتها فى الثلاثينات فورثت أعباء لم تعتد حملها ، ثم نكبت بوفاة أبيها قبيل الحرب العالمية ، ووفاة عمها سرور بعده بأعوام ، فكابد قلبها آلاما حقيقية لشدة وفائه للعواطف الأسرية . واعتبرت زواج شاذلى خيبة ظالمة وضعتها فى كفة حظها العاثر حتى قال لها محمد إبراهيم :

— ليس الأمر بالسوء الذى ترين ..

فقالت متشكية :

— كان يستحق عروسا أفضل ..

فقال الرجل :

— إنه أدرى بما يسعده ..

وتابعت نجاح أمانة فى دراستها بارتياح وأمل وإذا بزوجها المحبوب يصاب بتليف فى الكبد ، فيلزم الفراش وتتدهور حاله ، ثم يسلم الروح فى العطلة الصيفية بعد نجاح أمانة فى البكالوريا . تلقت مطرية أقسى ضربات حظها ، ووجدت نفسها أرملة دون الخمسين . واضطرت إلى تزويج أمانة من عبد الرحمن أمين ، ومكثت فى بيت حارة الوطاويط مع خادمتها ، وحيدة حزينة ، وضاعف من همومها ما صادفته أمانة فى حياتها الزوجية من متاعب . وكانت تتسلى بزيارة الأهل ، أمها وأخواتها وإخوتها وبنات عمها وآل عطا وآل عبد العظيم داود ، وفى مقدمة الجميع شاذلى وأمانة . ومضت تذبل وتجف ، وتتغير معالمها ، ولكنها أبقت على ميزتها الفريدة وهى تبادل الحب مع الأهل والناس . ولعلها الوحيدة من أسرتها التى لم تنقطع صلتها بشكيرة زوجة أخيها حامد بعد أن فصل الطلاق بين الزوجين . وشد ما أحزنها الموت المبكر لأبناء شاذلى ، ولما نجا ابنه محمد من قدرهم دعت الله أن يبقيه لأبيه ولها ، وتوسلت إلى أمها راضية أن تحميه بكل ما لديها من وسائل . وكانت ضربة قاضية لها عندما

وافتها أنباء استشهاده فى الاعتداء الثلاثى . واشتد بها الذبول والجفاف . وتبين أنها مصابة بسرطان . ومازالت تتدهور وتسير من شىء إلى أسوأ حتى أسلمت الروح وهى فى الستين . كانت أول من يموت من الجيل الثانى فى آل عمرو بل فى الأسرة كلها . واقتضت الظروف ألا يحزن عليها كما ينبغى أحب الناس لها . شاذلى لم يترك له حزنه على ذريته فائضا . وراضية كانت فى الثمانين وحزن الثمانين سريع الزوال . وقاسم كان قد استوى لديه الحزن والسرور .. فلم تجد أمانة من يشاركها البكاء واللطم .

« معاوية القليوبى »

ولد ونشأ فى بيت سوق الزلط . وتربى تربية دينية خالصة واقتبس من أبيه معلومات وسلوكا حتى قبل أن يجاور فى الأزهر . وأبدى نجابة وتفوقا ، وغراما خاصا بالنحو الذى راح يدرسه فى الأزهر بعد حصوله على العالمية . وقبيل وفاة والده بأشهر زوّجه الرجل من جليلة الطرابيشية ، وهى كريمة سلمان الطرابيشى الذى كان يعمل فى مصنع طرابيشى الباشا . وكان معاوية يزاول نشاطا إضافيا فى جوامع حيه ، مما أضفى على شخصه مهابة ومحبة . وكانت جليلة تفوقه طولا ، وكانت ذات أطوار غريبة ، وعصبية حادة ، وتراث حافل بالغرائب ، فصمم الرجل على أن يلقنها مبادئ دينها الصحيحة ، ونشب بينهما صراع ودى طويل ، فأعطاها وأخذ منها ، وكلما أصابته وعكة سلم نفسه إلى طبها الشعبى دون منازع ، وذاعت شهرتها فى الحى حتى

كادت تغطى على شهرته . وقد ربط الحب بينهما ، وبفضله استمرت الحياة الزوجية ، رغم حدة طبعها وتعصبها لأفكارها ، وأنجبت له مع الأيام راضية وشهيرة وصديقة وبليغ . ولما قامت الثورة العرابية تحمس لها الشيخ ، ومال إلى تيارها ، وأيدها بالقلب واللسان . ولما فشلت الثورة واحتل الإنجليز مصر قبض عليه فيمن قبض عليهم ، وقدم للمحاكمة فقضت عليه بالسجن خمسة أعوام . وراحت جليلة تطوف بأضرحة الأولياء داعية على الخديو والإنجليز ، ودبرت شئون أسرتها بشىء من المال ورثته عن أبيها . وغادر الشيخ معاوية السجن ليجد نفسه فى دنيا غريبة ، فلا أحد يذكر الثورة أو أحدا من رجالها ، أو تذكر بعض الأسماء مصحوبة باللعنات ، ولم يجد عينا تنظر إليه بعطف سوى عين يزيد المصرى صديقه القديم وناظر سبيل بين القصرين . شعر الرجل بغربة وأسى وانطوى على نفسه حتى وجد وظيفة معلم بمدرسة أهلية . وقال له صديقه عزيز ذات يوم :

— ابنى عمرو موظف فى نظارة المعارف فى العشرين من عمره وأود له أن يكمل نصف دينه.فأدرك الشيخ ما يرمى إليه وقال :

— على بركة الله ..

فقال عزيز ..

— ستتم على يديك بإذن الله ومن بيتك ..

فقال الشيخ :

— راضية بنتى وعمرو ابنى !

وذهبت نعمة عطا وابنتها رشوانة لخطبة راضية . ورجعتا مبهورتين بجمال صديقة وراضيتين عن جمال راضية ووجهها الشامخ ، غير أن

نعمة تساءلت :

ــ أهى أطول من عمرو ؟

فقالت رشوانة باطمئنان :

ــ كلا يا أمى ، هو الأطول ..

ولكن الأجل عاجل الشيخ قبل أن يشهد زفاف كريمته ، وصادف وصول نيشان العروس يوم الوفاة ، الأمر الذى أدى بجليلة من خلال اجتهادها الشخصى مع تراثها إلى أن تطلق زغرودة من نافذة ثم تواصل صواتها على الراحل العزيز ، وتصير بذلك نادرة الحى على مجرى العمر . ودفن الشيخ فى حوشه القريب من حوش عزيز فى رحاب سيدى نجم الدين ..

« حرف النون »

« نادر عارف المنياوى »

ولد ونشأ فى الدرب الأحمر ، الابن الوحيد لحبيبة عمرو والشيخ عارف المنياوى : لم يترك أبوه فى وعيه أية ذكرى فترعرع فى بحيرة ثرية بحنان أمه وجدته لأبيه ، ورحلت الجدة وهو ابن ستة فوجد فى قلوب عمرو وراضية وبقية الأسرة ما أنساه يتمه ووحدته . وربما كان من حسن حظه أن يعشق التفوق ويهيم فى الطموح من صغره ولكنه لم يقدر التضحية الجنونية التى ضحتها أمه من أجله برفضها فرصة حسنة للزواج ، وبقائها أرملة طيلة العمر عقب حياة زوجية لم تستمر سوى عامين . وشب نادر

ذا رونق وفحولة ، ولم تخل فترة من حياته من مغامرة عاطفية فى نطاق ميزانيته المحدودة . وحصل على بكالوريوس التجارة فى أثناء الحرب العظمى وألحق بوظيفة فى وزارة المالية . ودأب على كره فقره والتطلع الدائم إلى أفق سامق ، ومن أجل ذلك التحق بمعهد لتعليم اللغة الإنجليزية ، وأتقن الكتابة على الآلة الكاتبة ، ثم قدم لامتحان أعلنت عنه شركة إنجليزية للمعادن فنجح ، واستقال من الحكومة ليشغل وظيفة فى قسم الحسابات بالشركة . وأرعبت مغامرته أخواله وأقاربه وأمه ولكنه قال بثقة لا عهد للأسرة بها :

ــ لا مستقبل للحكومة ..

وتحسنت أحواله ولكن طموحه لم يشبع . ولما قامت ثورة يوليو لم يأنس إلى أسلوبها كشاب طموح يحلم بالثراء . وتحققت مخاوفه عقب الاعتداء الثلاثى ومصادرة الشركات البريطانية ، عندما وجد نفسه مرة أخرى موظفا فى الحكومة على غير إرادته . وعند ذاك درس حال أسرته وفروعها على ضوء الوضع الثورى الجديد ، فرأى فى آل عطا المراكيبى وآل سميرة خالته بعض الممثلين للثورة مثل عبده عطا وماهر عطا وابن خالته حكيم . وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يتزوج من نادرة شقيقة عبده وماهر أو من هنومة شقيقة حكيم . وشاور أمه فى الأمر فقالت :

ــ هنومة أقرب لنا وهى الأجمل ..

وبإيعاز منه خطبتها له . وهى مذيعة فى الراديو وذات مبادئ وخلق كأخيها سليم ، وكانت قد رفضت يد ابن خالتها عقل ولكنها وافقت على الزواج من نادر ، وتم الزفاف فى شقة بشارع حسن صبرى بالزمالك ، وألح نادر على أمه أن تعيش معه ولكنها أبت أن تغادر الدرب الأحمر أو تبتعد

عن بركات الحى العتيق حيث تقيم أيضا أمها المحبوبة وكثرة من أخواتها وبنات عمها . ونعمت الأسرة الجديدة بالسعادة وأنجبت له هنومة ثلاث بنات ، سميرة وراضية وصفاء . وتوثقت العلاقة بين نادر وحكيم ، وبفضل حكيم رقى نادر رئيسا للحسابات ، وكبر مرتبه فوق ما يحلم أى من أقاربه الموظفين ولكنه كان ذا طموح لا يعرف الحدود . ولما حصلت التأميمات تعين رئيسا لمجلس إدارة الشركة دون شبع من ناحيته حتى سألته هنومة :

— ماذا تريد ؟

فقال بغموض :

— إنى أحتقر المرتبات الثابتة ..

فقالت هنومة بوضوح :

— وأنا لا أكره الثراء شريطة أن يقترن بالنقاء !

فتوجس خيفة من نظرة عينيها وقال بعجلة :

— طبعا ..

وشعر بأن شريكة حياته ليست شريكة فى طموحه . وكان يؤمن فى أعماقه بأن الفارق الوحيد بين أهل السجون وأهل الخارج هو الحظ لا الخلق أو المبادئ ، وأن العالم مجموعة من الأوغاد لا ينجو منها إلا القوى الشاطر . واعتبر زوجته امتدادا للرأى العام الأحمق الذى عليه أن يداريه طالما أصر على تحقيق طموحه . ومضى يوثق علاقاته ببعض الضباط وآخرين من رجال القطاع الخاص . حتى كانت هزيمة ٥ يونية ، وانكشف أمره فيما انكشف المستور من أمورهم . واكتفى بإحالته إلى المعاش بفضل حكيم أيضا ولكن هنومة ثارت عليه ثورة لم يفلح فى مهادنتها

إلا بالطلاق . وقالت سميرة لهنومة بهدوئها المعهود :

— أنت مسئولة عن نفسك فقط ..

فقالت الفتاة بشدة :

— لا أستطيع أن أغمض عينى وأهدم بنيان حياتى كله ..

واحتفظت هنومة بالشقة والبنات وراح هو يتنقل بين الفنادق والدرب الأحمر ، وفسر لأمه الساذجة الطلاق على أنه خلاف مما يفسد الحياة الزوجية . ولما تغير الحال وهلت طلائع الانفتاح تنفس من جديد ، واستمد من الجو الطارئ حياة لم يحلم بها من قبل . واشتغل بكل همة فى الاستيراد ، وحقق لنفسه أخيرا الحلم الذى راوده من الصغر . وانفسح المجال أمامه ما بين الخارج والداخل . وفى إحدى رحلاته تعرف بأرملة أسترالية فتزوج منها ، وأقام معها فى فيللا فى المعادى . وكثيرا ما يقول ضاحكا :

— إنها قسمة عادلة ، فالثراء للأقوياء والأخلاق للضعفاء ..

« نادرة محمود عطا المراكيبى »

هى الرابعة فى ذرية محمود بك عطا ، ولدت ونشأت فى سراى ميدان خيرت ، فى الجو المعبق بالعز والرفاهية . وكانت على قدر من الوسامة وإن تكن دون إخوتها الذكور ، وعلى مثال أختها الكبرى شكيرة فى الخلق والمبادئ والتدين مع شىء كثير من المرونة والدماثة . وكانت حادة الذكاء محبة للتعليم فلم يعارض أبوها فى استمرارها فيه بعد أن غزاه الزمن بمفاهيمه الجديدة . وقد توجت سعادة صباها بالحب الذى ربط بينها وبين مازن ابن

عمها . استوى فارسا لأحلامها منذ مراهقتها وحتى آخر يوم فى حياته بل لعله ظل كذلك طيلة عمرها . أحبته كما لم تحب شيئا فى الوجود ، وناطت به أحلامها وسعادتها وأمانيها . وشد ما جزعت للخصام الذى مزق أسرتها ، وشد ما خافته على سعادتها وآمالها ، وقالت لأمها :

ـــ بابا جاوز غضبه الحد ..

ولم تنقطع الصلة بينها وبينه طوال أعوام الخصومة .. وفى أثناء ذلك حصلت على البكالوريا والتحقت بكلية الطب . ثم كانت الكارثة التى هلك فيها مازن وتلاشى من وجودها . كادت تجن من الحزن بل والغضب ، وقضت عاما فى السراى أسيرة للكآبة ، ثم واصلت دراستها وقد تحجر قلبها وصمم على الزهد فى الدنيا . خرجت من حياتها فى تلك الأيام بتجربتين مرتين ، وفاة حبيبها ، وخيبة أمل شقيقتها فى حياتها الزوجية . ونزعت بكل قواها لتكريس حياتها للعمل والوحدة والقراءة الدينية . وعرضت لها فرص زواج طيبة ولكنها كانت قد تطبعت بسوء الظن بالنوايا ، وكرهت فكرة الحياة الزوجية . وتخصصت فى طب الولادة ، وحصلت على الدكتوراه ، وأحرزت نجاحا مرموقا تزايد يوما بعد يوم . ولم تحفل بنصائح إخوتها لها بإعادة النظر فى الزواج وثابرت على عملها ووحدتها وتدينها حتى فاتها القطار دون أسف مسجلة فى عالم الأحزان ظاهرة فريدة لا تتكرر . وجمعت السراى بين شكيرة وعبده ونادرة وماهر فى الكبر كما جمعت بينهم فى مطلع الحياة ، أمثلة حية للنجاح والفشل معا ..

« نعمة عطا المراكيبى »

ابنة عطا المراكيبى وسكينة جلعاد المغاورى . ولدت ونشأت ببيت الغورية ، وورثت عن أمها عينيها النجلاوين وشعرها الأسود الغزير بالإضافة إلى صحة جيدة لم تحظ بها الأم . ولما عزم يزيد المصرى على تزويج ابنه عزيز وجد فيها الشروط المزكية ، فهى ابنة جاره وصديقه عطا المراكيبى ، وهى مصونة وجميلة ، وزفت نعمة إلى عزيز منتقلة من دور إلى دور فى نفس البيت بالغورية . وكانت مثالا طيبا للزوجة العاقلة المدبرة المطيعة ، وأنجبت لعزيز رشوانة وعمرو وسرور . وتلقت من زواج أبيها بالأرملة الغنية صدمة ، ثم تابعت ارتفاع أبيها إلى طبقة جديدة بذهول ، وزارت السراى الجديدة بميدان خيرت ، وسراى العزبة ببنى سويف فانبهرت بما رأت أى انبهار ولم تصدق عينيها . وتوقعت أن تنهال عليها دفقات من الخير ولكن خاب رجاؤها ، وفيما عدا هدايا المناسبات فقد قبض الرجل يده عنها كأنها ليست بكريته ، وليست الأخت الكبرى لمحمود وأحمد . وقال لها عزيز :

ـــ إنه شحيح وممن يحبسون النعمة ..

ولكنها رغم حنقها دافعت عن أبيها قائلة :

ـــ بل يخاف أن تتهمه المرأة بتبديد ثروتها !

ورغم تقواها حلمت بأن تسبق الأرملة أباها إلى الآخرة فيرثها وبالتالى ترث هى حظا من الثروة يدعم رشوانة وعمرو وسرور فى حياتهم ، ولكن الرجل رحل قبل زوجته بقليل ، مخيبا رجاءها بموته كما خيبه بحياته . والحق

أن مخالطة أخويها — محمود وأحمد — لها ولأولادها وبرهما بهم أنساها أحزانها فبادلتهما حبا بحب حتى آخر عهدها بالحياة . وامتد بها العمر حتى قرت عينا بأحفادها ، ورحلت عن الدنيا بعد عزيز بعامين ..

« نهاد حمادة القناوى »

بكرية صدرية وحمادة القناوى . ولدت ونشأت فى خان جعفر ، ومرحت فى طفولتها فى بيت القاضى ، وحظيت بمنزلة طيبة لدىٰ عمرو وراضية بوصفها طليعة الأحفاد . وكانت على جمال مقبول ، وتعليم قليل سرعان ما تلاشى . ولما قاربت الخامسة عشرة خطبها عمدة متوسط العمر من أقارب أبيها فرحب به حمادة أيما ترحيب ، وأدركت صدرية بأسى عميق أن ابنتها تنفصل عنها إلى الأبد وأنها لن تراها إلا فى المناسبات ، وأنها ستنتمى من الآن فصاعدا إلى الصعيد. وتأقلمت نهاد مع البيئة الجديدة فتطبعت بسجايا جديدة واكتسبت لهجة جديدة ، وأنجبت للعمدة عشرا ، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ، وكلما زارت القاهرة كوافدة غريبة تطلعت إليها الأبصار بغرابة ، وهى تشهد حرم العمدة بجسمها المترامى ، وحليها الذهبية التى تغطى الساعدين والعنق ، ولكنتها الغريبة المثيرة للضحك ..

« حرف الهاء »

« هنومة حسين قابيل »

صغرى بنات سميرة وحسين قابيل ، ولدت ونشأت فى بيت ابن خلدون ، على طراز أمها فى الجمال ، طويلة القامة ، رشيقة القد ، حادة الذكاء ، شديدة فى التمسك بالأخلاق والمبادئ ، وشديدة الشبه فى ذلك بأخيها الأصغر سليم ، وتفوقت فى الدراسة والتحقت بالآداب قسم اللغة الفرنسية . وقد تحمست لثورة يوليو باعتبارها ثورة إصلاح وأخلاق ، ولكنها انقلبت عليها مذ حكم على سليم بالسجن ، ولم تتردد فى اتهام حكيم بالخطأ فى موالاته لها . وقد تخرجت فى الكلية ، والتحقت بالإذاعة لتفوقها من ناحية وبفضل توصيات حكيم من ناحية أخرى ، وأراد عقل ابن خالتها صدرية أن يتزوج منها ولكنها رفضته لطولها وقصره وقالت لأمها :

— سيكون منظرنا مضحكا إذا سرنا معا فى الطريق ..

ووافقت على الزواج من نادر ، لمركزه ، ووسامته ، وحسن ظنها بأخلاقه، وعاشت معه عمرا فى شقة أنيقة بشارع حسن صبرى بالزمالك وأنجبت له سميرة وراضية وصفاء . ولما تكشف لها انحرافه ثارت ثورة عنيفة لم يتوقعها الرجل من شريكة حياة . وقالت له بصراحتها الحادة :

— إنى أرفض الاستمرار فى معاشرة رجل تبين لى انحرافه ..

وكانت سميرة تكره فكرة الطلاق وحاولت أن تقنعها بأنها ليست

مسئولة عنه ، وأنها يجب أن تزن عواقب تصميمها على بناتها ولكن قالت لأمها :

ـ لقد سقط فى نظرى ولا حيلة لى فى ذلك ..

وانتهى الخلاف بالطلاق ، واحتفظت ببناتها معها فى شقة الزمالك ، وراحت تربيهن على مثالها ، ولم تأسف قط على القرار الصارم الذى اتخذته . ومضت الأيام وآن للبنات أن تتزوج ، وكان الزواج قد أصبح مشكلة غير قابلة للحل لارتفاع تكاليفه وصعوبة الفوز بشقة ، ولكن نادر ذلل كافة الصعوبات ، فابتاع شقة لكل بنت وجهزهن على المستوى اللائق به . وقالت هنومة تعزى نفسها :

ـ إنه أبوهن والمسئول عنهن ..

ولكنها لم تستطع أن تغفل عن الحقيقة المرة وهى أنه لولا ماله الحرام ما تيسر لبنت منهن أن تستقر فى بيت الزوجية . وتساءلت فى أسى عميق :

ـ هل أصبحت الحياة الشريفة مستحيلة حقا ؟!

« حرف الواو »

« وحيدة حامد عمرو »

بكرية حامد وشكيرة ، ولدت ونشأت فى سراى ميدان خيرت ، ولعبت طفولتها فى حديقتها المترامية الغناء . ووضح من الصغر ذكاؤها ، إلى جمال مقبول ، وروح مرحة غالتها رياح النكد . من قديم تشرب قلبها بالكآبة فى مناخ الحياة الزوجية المسموم ، وتمثلت أحزان أمها الدائمة حتى ترسب النفور من أبيها فى أعماقها . ولم تجد فى أخيها صالح أى عزاء لعنف خلقه وملاحقته الناس بأخطائهم كأنه الحسيب عليهم ، ثم جاء الانشقاق بين جدها محمود وأخيه أحمد ليقضى على البقية الباقية لها من أمل فى حياة يمكن أن تعد بشىء من التفاؤل أو السعادة . وترامت إليها عداوة أهل أبيها لأمها ، وكلماتهم المدببة ، بالإضافة إلى المآسى الكثيرة التى هصرت الفروع حتى سلمت بلا وعى منها بأن الحياة ما هى إلا سلسلة من الأحزان والانحرافات والانفعالات القاسية . ووجدت سلواها الوحيدة فى الدراسة فتفوقت ، والتحقت مثل خالتها نادرة بكلية الطب ، وما إن وجدت فرصة للعمل فى السعودية حتى ولت هاربة . وبعد أعوام من الغربة كانت مفاجأة لأمها أن تتلقى منها رسالة تنبئها فيها بأنها ستتزوج من زميل باكستانى يعمل معها فى نفس المستشفى ..

« وردة حمادة القناوى »

هى الثالثة فى ذرية صدرية وحمادة . ولدت ونشأت فى خان جعفر ، ولكنها عشقت البيت القديم بميدان بيت القاضى وتعلقت بجدتها راضية فبادلتها الجدة حبا بحب ، وكانت تقول لصدرية عنها :

— وردة أجمل البنات ولكن ميزتها الأولى فى العقل ..

وقد خطبت لابن عم أبيها الشاب وهى دون سن الزواج ، ولكنها أصيبت بالملاريا ، ولم تستطع المقاومة ففاضت روحها تاركة فى قلب أمها جرحا لا يندمل .

« حرف الياء »

« يزيد المصرى »

وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام . وكان فى الإسكندرية من أسرة عطارين ، ولما انتشر الوباء أهلك أفرادها فلم يبق على رجل أو امرأة سواه . وكره البلد فقرر هجرها ويمم شطر القاهرة . وكان معه شىء من المال ، وميزة نادرة فى ذلك الزمان وهى أنه كان يعرف القراءة والكتابة ، لقنها فى المعهد الدينى قبل أن ينقطع عنه ليعاون أباه فى دكان العطارة . وتحير فى القاهرة فترة حتى وجد مأواه فى بيت بالغورية ، كما وجد عملا كخازن فى وكالة الوراق . كان شابا قوى الجسم غامق

السمرة واضح الملامح ، يرتدى الجلباب والشملة والعمامة ، ولتقواه ووحدته تاقت نفسه للزواج . ورأى فرجة السماك وهى تبيع السمك فى الطريق فأعجبته ، وبمعاونه جاره عطا المراكيبى تزوج منها . وقد أنجبت له ذرية وفيرة بقى منها على قيد الحياة عزيز وداود ، وامتد به العمر حتى شهد مولد أحفاده رشوانة وعمرو وسرور . وزاره سيدى نجم الدين فى المنام وأمره أن يبنى قبره فى جوار ضريحه فصدع بما أمر ، وشيد الحوش الذى دفن فيه ، ومازال يستقبل الراحلين من ذريته المنتشرة فى أنحاء القاهرة .

« تمت »